الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر
معـــهد الآثار

مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية

دور الطرق التجارية في إنشاء المدن بالمغرب الأوسط في العهد الوسيط
- مدينة وارجلان نموذجا -

إعـداد الطـالـب:
خـالدي عبد الـرزاق

إشـراف الأستاذين:
د/ بويحياوي عـز الـديــن
د/ خـالـــف محمـد نجيـب

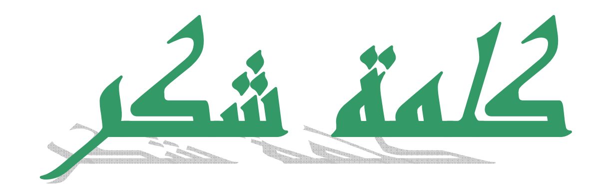
السنة الجامعية: 2008 - 2009



(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا
مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ.)

صدق ا العظيـ ـ ـم

سورة غافر الآية 21

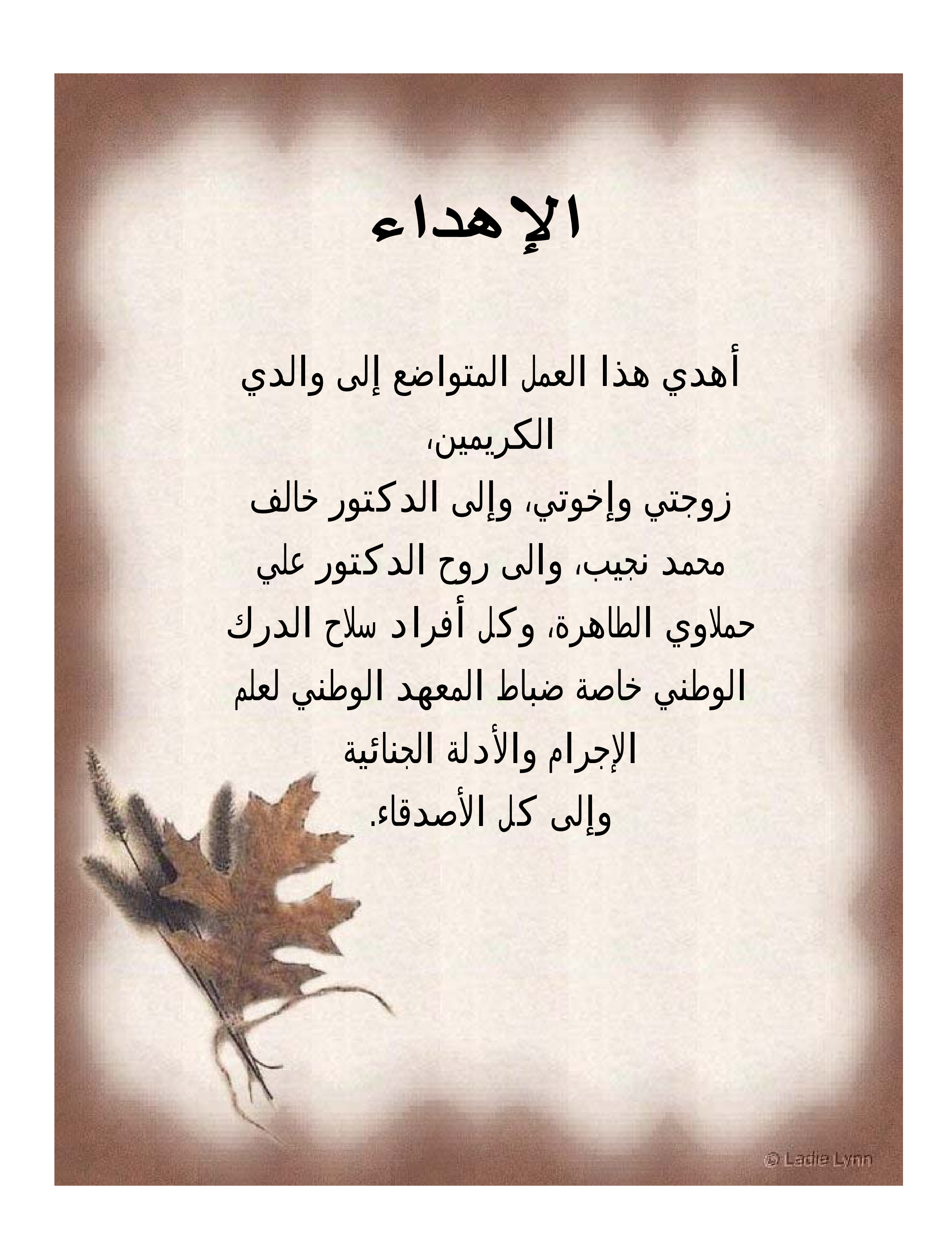


قال تعالى: " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي
وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه "
الأحقاف الآية 14 .

كلما أدبني الدهر * أراني نقص عقلي
وإذا ازددت علما * زادني علما بجهلي

أتقدم للأستاذ المشرف الدكتور خالف محمد نجيب بأسمى عبارات التقدير والاحترام على اقتراح هذا الموضوع إلا أن الأقدار شاءت على غيابه في عملية الإشراف، وأتوجه بأبلغ عبارات الشكر و الإمتنان للأستاذ الدكتور عز الدين بويحياوي
على التأطير و التوجيه
والإرشادات القيمة التي أمدني بها
طوال فترة هذا العمل.

كما أشكر كل من ساعدني
على إخراج هذا العمل إلى النور.



الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والدي
الكريمين،
زوجتي وإخوتي، وإلى الدكتور خالف
محمد نجيب، والى روح الدكتور علي
حملاوي الطاهرة، وكل أفراد سلاح الدرك
الوطني خاصة ضباط المعهد الوطني لعلم
الإجرام والأدلة الجنائية
وإلى كل الأصدقاء.

قائمة المختصرات:

1. باللغة العربية:

- م .و . ك: **المؤسسة الوطنية للكتاب.**
- د. م. ج: **ديوان المطبوعات الجامعية.**
- ش. و. ن. ت: **الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.**
- م . ب. د. ع: **معهد البحوث والدراسات العربية.**
- م . و. د. ت: **المركز الوطني للدراسات التاريخية.**
- د. ت: **دون تاريخ.**

2. باللغة الفرنسية:

- S.N.E.D:**Société National d'Edition et diffusion.**
- R.A: **Revue AFricaine.**


المقدمة

مـقـدمـة:

إن تاريخ إفريقيا في العصور الوسطى يثبت أن الصحراء الكبرى لم تكن حاجزا ومانعا من انتقال التجارة من الشمال إلى الجنوب، وكانت هناك طرق تجارية معروفة استعملها التجار والدعاة المسلمين على إثرها تم انتقال المؤثرات الحضارية من بلاد المغرب الأوسط إلى بلاد السودان الغربي في العهد الوسيط، حيث شهدت الصحراء الإفريقية مدا إسلاميا واسعا عن طريق المغرب الإسلامي خاصة خلال القرنين 10 و 12م، كما قامت بها مراكز عمرانية وحضارية هامة من أبرزها مدينة تمبكتو وجاو وجنى وغيرها.

لقد حققت هده التجارة ازدهار الحياة الاقتصادية واتساع الممالك وعظم العمران، وكذلك زادت من أواصر الصلة والعلاقة بين بلاد المغرب وجنوب إفريقيا، وازدهرت بموجبها أيضا مجموعة من المدن القوافل التي أصبح بعضها سوقا رئيسية للتجارة وان كثيرا من محطات القوافل تحولت بمرور الوقت إلى مراكز تجارية مميزة خاصة تلك التي كانت تقع على ملتقى طرق القوافل التجارية الكبرى.

وتم اختيار موضوعنا هذا على مدينة وارجلان، لأنها كانت من أهم العواصم التجارية التي تلتقي فيها القوافل القادمة من مختلف مدن بلاد المغرب الأوسط كمدينة تيهرت وتلمسان وغيرها.

إن التركيز على الجانب التجاري في هذا الموضوع لكونه عامل من العوامل الأساسية التي أسهمت في ازدهار المدينة الإسلامية، وأنها كانت سببا في مولد كثير من المدن، ومن ثم هناك علاقة متبادلة بين التجارة والمدينة

الإسلامية، وكان العرب بحكم ارتباطهم وانتماءاهم القبلية وعاداتهم يفضلون حرفة التجارة على غيرها من الأنشطة الحضرية.

احتوت المدينة الإسلامية في العصور الوسطى على العديد من المنشآت والمؤسسات التي أنشئ بعضها لأغراض تجارية كالفنادق والوكالات والبعض الأخر أنشئ لأغراض دينية وتعليمية كالمساجد والزوايا، ولم تقتصر المدينة على هده المنشآت فقط وإنما حفلت بمنشآت ذات صبغة اجتماعية بحتة.

اخترنا في بحثنا هذا الاعتماد على المنهج التاريخي والاستقرائي للحصول على المعلومات المرتبطة بالطرق والتجارة في المغرب الأوسط وعلاقتها بنشأة المدن وتطور العمران، واعتمدنا كذلك على المصادر والمراجع التاريخية بالعربية والفرنسية، على الرغم من ذلك فإن الموضوع لم يستوف حقه من الدراسة والتحليل.

تناولنا هذا الموضوع لأنه يوحي بأهمية تاريخية وأثرية خاصة دراسة المدن بالمغرب الأوسط، وأيضا تحديد الطرق التجارية التي كانت سائدة في تلك الفترة ودورها في إنشاء المدن التاريخية، فالبعض منها اندثر ومنها ما شهد تغيرات في ملامحها العمرانية، فالإشكالية المطروحة إذا هي ما مدى تأثير الطرق التجارية في نشأة وتطور المدن ؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية عدة تساؤلات نصيغها فيما يلي:

1. ما هي المؤثرات الحضارية الناتجة بفعل المبادلات التجارية بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد السودان؟

2. ما هي العلاقة بين مسالك القوافل التجارية وتطور العمران و نشأة المدن؟

3. إلى أي مدى التزم أهل الصحراء بشروط ابن الربيع عند اختيارهم لمواقع المدن الصحراوية؟

4. هل عكست مدينة وارجلان واشتركت في نفس الملامح والخصائص الأساسية المميزة للمدينة الإسلامية؟

وبناءا على جملة من هذه التساؤلات قسمنا الموضوع إلى أربعة فصول:

الفصل التمهيدي: وهو عبارة عن مدخل جغرافي لطبيعة الصحراء الإفريقية، ومناخها، ومياهها، والأنهار المتواجدة في القارة.

الفصل الأول: تمحور حول التجارة والمبادلات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي، وتطرقنا فيه إلى أنواع المبادلات التجارية، وذكرنا فيه الطرق التجارية الرئيسية والفرعية المارة بالمغرب إلى بلاد السودان، ومختلف المراكز التجارية.

الفصل الثاني: تمحور حول دور الطرق و المسالك التجارية في نقل المؤثرات الحضارية بين بلاد المغرب الأوسط وبلاد السودان الغربي، والمتمثلة في انتشار الإسلام واللغة العربية، دور الزوايا والفقهاء والعلماء المسلمين.

الفصل الثالث: تمحور حول تطور المدن في المغرب الأوسط في العصر الوسيط، والذي تناولنا فيه علاقة التجارة بتطور المدن.

الفصل الرابع: وهو عبارة عن دراسة نموذجية لمدينة وارجلان في العصر الوسيط، تطرقنا من خلاله لتاريخ تأسيس المدينة، وتخطيطها والعوامل الرئيسية المكونة لها.

وأنهينا هذه الفصول بخاتمة احتوت على ما توصلنا إليه من نتائج، كما أرفقنا بحثنا هذا بملحق للخرائط و الأشكال والفهارس.

وأما فيما يخص المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث سواء العربية منها أو الأجنبية فهي كثيرة، ويغلب عليها التشابه الكبير فيما بينها خاصة ما تعلق منها بتاريخ المدينة.

<u>نقد المصادر والمراجع:</u>

اعتمدنا في بحثنا هذا على كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب وهو جزء من المسالك والممالك لمؤلفه البكري المتوفى سنة **487هـ/1094م**، فقد وصف من خلاله السودان الغربي وتحدث عن مدنه ومسالكه وعدد المراحل بين المدن والتجارة والمبادلات التجارية بينها وبين بلاد المغرب الأوسط. كما كان ديوان ابن خلدون (**808هـ/1405م**) ومقدمته مصدرا لأهم المعلومات التاريخية، فقد اهتم بذكر القبائل البربرية التي سكنت منطقة وارجلان ولم يهتم بذكر الدولة الرستمية.

وقدم لنا حسن الوزان من خلال رحلته إلى الصحراء في مطلع القرن 16م عدة معلومات هامة عن هذه المنطقة حيث شهدت الصحراء الأفريقية خلال العصور الوسطى مدا إسلاميا واسعا عن طريق التجارة وقامت بالصحراء مراكز عمرانية وحضارية أبرزها مدينة تمبكتو وجنى... وغيرها.

إن أول من تعرف على المناطق الصحراوية هم الرحالة العرب المسلمين الذين ذكروا معالمها وظروفها السياسية والحضارية في كتبهم أمثال ابن حوقل في القرن 10م والبكري في القرن 11م والإدريسي في القرن 12م

ومن بين المصادر التي أفادت هذا كتاب ابن حوقل الشهير" **صورة الأرض** " الذي ألف قبل وفاته سنة **378 هـ / 988م**، وهو كتاب في الجغرافيا الذي أفادنا بمعلومات عن الصحراء والعلاقات بين المغرب والسودان الغربي خاصة غانة وكذلك المسالك المؤدية إليها ولنشاطها في ميدان التجارة بالإضافة إلى ذلك نذكر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية لجودت عبد الحكيم يوسف الذي جمع معلومات من المصادر الاباضية ومن خلال دراسته للناحية الاقتصادية والتجارية ويذكر مدى أهمية منطقة وارجلان وعلاقتها بغرب وجنوب إفريقيا.

واعتمدت على كتاب **انتشار الإسلام في القارة الإفريقية** لحسن ابراهيم حسن الذي أشار من خلاله على انتقال المؤثرات الحضارية من بلاد المغرب إلى السودان بخصوص انتشار الإسلام واللغة العربية وبعض المؤثرات التي سنتطرق إليها في بحثنا هذا.

ومن المراجع الأجنبية التي اعتمدت عليها نذكر كتاب ليتيو تحت عنوان "Ouargla, cite saharienne" الذي تحدث عن مدينة وارجلان خاصة من الناحية التاريخية، وحاول نسبة أصول أسمائها البربرية إلى الرومانية، ولم يركز على الفترة الإسلامية من حيث الإسهام الحضاري.

الفصل التمهيدي

الإطار الجغرافي

طبيعة الصحراء:

تعتبر الصحراء الكبرى أوسع صحاري العالم ، تمتد شرقا من البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسي غربا، و من الجنوب إلى الشمال بين بلدان إفريقيا الشمالية و بلاد السودان[1].

حدود الصحراء من الشمال، غير واضحة المعالم ، حيث أنها تتصل اتصالا مباشرا ببعض المناطق الموجودة بالبحر الأبيض المتوسط مثل مرسى مطروح و بنغازي، و تمتد وراء الهضاب العليا في الغرب وتتوغل نحو الشمال حينا، و تنحصر إلى الجنوب حينا آخر.

و هذا الغموض و الاضطراب هو الطابع الذي يميز حدود الصحراء الجنوبية أيضا، و لكنها بصفة عامة تنتهي عند الخط الذي يشكله امتداد هضاب النيجر([2]) وكذلك نرى أن حدود الصحراء الشمالية والجنوبية لا تمثلها أية حواجز طبيعية، مثل الأنهار و الجبال، تمتد بصورة اعتباطية وغير مستقرة، وهذا ما يزيد من عدم استقرارها زحف الرمال نحو الشمال لتغطي مساحات من التل([3]).

---

[1] بلاد السودان يعني بلاد السود وتسمية هذا البلد مأخوذة من اللفظ وتدل على جميع البقاع التي يقطنها السود من قارة إفريقيا وينقسم إلى:

- السودان الغربي: يشمل حوض نهر السنغال ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا الحوض الأوسط لنهر النيجر
- السودان الأوسط: يشمل حوض بحيرة التشاد
- السودان الشرقي: يشمل النهر الأعلى للنيل انظر:

زبادية عبد القادر، السودان الغربي وممالكه الإسلامية الكبرى، مجلة التاريخ، م و د ت، العدد 9، الجزائر، 1988، ص: 57، ودائرة المعارف الإسلامية السودان، ط 1، ج 19، دار المعرفة، بيروت، 1998، ص: 5917

[2] العربي إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، م و ك، الجزائر، 1987، ص: 13

[3] نفسه، ص 14

نجد في سطح الصحراء مستويات كبيرة الاختلاف في الارتفاع والانخفاض، ولكن الملاحظ بصفة عامة هو أن المناطق الشرقية يسودها الانخفاض، بينما المرتفعات تسود في المناطق الغربية، وتخترق الصحراء الوسطى سلسلة من البراكين التي تتجه بصورة تقريبية من الشرق إلى الغرب ، بين تيبستي وعين زيز عبر الأهقار، وهذا هو الاتجاه الذي تتخذه جبال الأطلس ([1]).

وتمتد في الصحراء ثلاث سلاسل كبيرة من الجبال الصخرية وهي سلسلة " أغلاب " في الغرب، تمثل امتدادا نحو الشرق لمرتفعات موريتانيا، وسلسلة جبال الأهقار التي تشكل سلسلة الجبال الوسطى الصحراوية، وتتفرع منها جبال أدرار وايفورا في الجنوب الغربي وجبال آير في الجنوب الشرقي([2]).

فالقفر الذي اشتهرت به الصحراء لا يعود إلى طبيعة التربة نفسها بل إلى المناخ الصحراوي، فالأمطار قليلة في الصحراء بحيث أن بعض المناطق تمر عليها سنوات دون نزول الأمطار فيها، والتي تهبط في المناطق الصحراوية على قلتها ليست ذات فائدة تذكر للزراعة ([3])، حيث أنها سرعان ما تتبخر بعد ملامستها للأرض وذلك بفعل ارتفاع درجة الحرارة. ومن المعلوم أن الصحراء الكبرى أشد المناطق تبخرا في العالم وماء المطر الذي يقدر له الوصول إلى الأرض سرعان ما يغوص في الرمال وتبتلعه الأرض المتعطشة.

[1] Thomas (S), Voyage dans la régence d'Alger au 18 siècles, traduit de l'anglais par e, Mac Carthy 1830, Alger, 2007, p 220-221

[2] السلاطي محمد بن علي، معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار، مخطوط رقم 1192، الجزائر، د ت، ورقة32، انظر أيضا: الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، ط7، د م ج، الجزائر، 1994، ص 24.

[3] الزبير محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1798- 1830، ط 2، م و ك، الجزائر، 1984، ص 119

مناخ الصحراء:

إن قساوة المناخ الصحراوي وعدم استقراره يعود إلى شدة الرياح التي تبلغ درجة عالية من السرعة بحيث تفتت الصخور وتعري سطح الأرض وتعرقل مجرى الحياة اليومية، الأمر الذي يفرض قيودا ويشكل ضغوطا على الإنسان والحيوان معا.

على الرغم من ظاهرة الجفاف التي يتسم بها المناخ الصحراوي، نلاحظ أن الأمطار التي تهطل في الشمال قد تتسرب إلى حافة الصحراء وتنشأ عن ذلك منطقة من السهوب التي ينمو فيها العشب وتشكل منطقة رعوية مثالية.

تمثل الصحراء الكبرى الحدود الجنوبية للمغرب الأوسط ، وقد ضمنت هذه الصحراء كثيرا من العوامل التي ساعدت على قيام علاقات تجارية وثقافية وطيدة بين المغرب الأوسط والسودان الغربي، إذ حظيت الصحراء بكثير من المنابع المائية والواحات التي انتشرت في أنحائها، فمكنت القوافل التجارية من القيام بمهامها الاقتصادية([1])

جو الصحراء في منتهى الحرارة صيفا وفي منتهى البرودة شتاءا، فقد ترتفع فيه الحرارة نهارا إلى ما فوق الخمسين درجة وتنخفض إلى ما يعادل عشرين درجة تحت الصفر ليلا([2]).

إن الرياح الصحراوية التي تهب خفيفة ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى إعصار وزوابع مشهورة بعتوها وأخطارها، ومن هذه الروايات ما يزعم أن الإعصار الصحراوي قد يبلغ من العنف والشدة أن يطوي قافلة ويدفنها تحت

[1]- الزبير محمد العربي، المرجع السابق، ص 120

[2] - Coudreau, le pays de Ouargla et les peuples de l'Afrique, paris, 1881, p 14.

الرمال، فقد عثر المستكشفون الأوروبيون على هياكل عظمية لقوافل بأسرها في الصحراء الليبية ، ولكنه لم يمكنهم التأكد ما إذا كان سبب الموت نتيجة الزوابع الرملية أو للعطش بعد ما ضلوا طريقهم([1]).

تحمل الرياح الصحراوية أسماء تختلف باختلاف المناطق الصحراوية، فهي تسمــى " **الشيهلي** " في وسط الصحراء الجزائرية التي تعني الرياح الجنوبية، وأما الرياح الخطيرة المتمثلة في الزوابع المثقلة بالرمال والغبار والتي يسميها الفرنسيون " **سيروكو**" فهي الرياح الجنوبية الشرقية الحارة، والرياح التي يسميها المصريون " **الخمسين** " ويزعمون أنها تستمر في الهبوب خمسين يوما دون انقطاع، وهي رياح عاتية جنوبية غربية وهذه وغيرها كلها أسماء محلية لرياح متقاربة النوعية والخطورة([2]).المعروف أن هذه الرياح القوية أمامها تنقل الرمل بالسهولة وتنقلها من مكان إلى مكان آخر فتمحو معالم الطرق وتملأ المنخفضات وتقتلع جذوع النخل وتغطي بساتين النخيل وتدفن القرى تحت الرمل تغير وجه الصحراء، وكل ذلك في وقت لا يتجاوز يوما واحدا.

يقول ابن السعيد في وصفه لطبيعة الصحراء" **لا ماء ولا مرعى ولا عمارة بل رمال سائلة وطرق مضللة طامسة وأكثر ما يكون فيها المطر (وزاو حيوان) صابر على العطش وزاو على شبه الغزال ولكنها أعلى منها وأول ما يلقى من ذلك الجزء صحراء سير التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانة وزاي طريق عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحر**"([3]). والأخطار الناجمة عن الزوابع والرياح الصحراوية والجفاف نرى عددا من

---

[1] - العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص 58

[2] Daumas (e), le Grand dessert ou inter aire d'une caravane du Sahara au pays des negeres, paris, 1849, p 84

[3] المغربي ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، د م ج، الجزائر، 1984، ص 113

الجماعات الصحراوية والشعوب والقبائل تعيش الآن على قمم الجبال الصحراوية، فهذه الجبال كلها تحتوي بكميات مختلفة باختلاف المناطق ، على موارد المياه التي تتبجس على سطح الأرض، وتسمح بتربية الحيوانات والاستقرار للسكان.

مياه الصحراء:

إن وجود الماء في شكل آبار أو أنهار أو بحيرات هو الشرط الأول لكل وجود نباتي أو حيواني في الصحراء، وأما مياه الأمطار فهي قليلة إذ أن الحياة في الصحراء تتوقف إلى حد بعيد على الحظ والصدفة، والعطش في الصحراء لا يهدد النبات والحيوان فقط، بل إن كل منطقة من مناطقها قصتها للفناء ومقبرتها للموتى بالعطش، فسير القوافل التجارية التي تجوب الصحراء غير ممكن إذا لم تسلك طريقا معروفة المعالم تتخللها آبار ومواقع للمياه.

وما هو معلوم عن تهطال الأمطار في الصحراء لا يتخذ نمطا عاديا وإنما يقع دائما على صورة برق ورعد. وهذه العواصف كثيرا ما تكون لها عواقب وخيمة على الإنسان والزراعة فقد ينجم عنها فيضان الأنهار الصغيرة التي تنتفخ في لحظات معدودة وتغرق مناطق بأسرها، كما قد يؤدي الفيضان إلى عزل بعض المناطق عزلا تاما عن العالم بصورة تعرضها للمجاعة والأوبئة([1]).

ولكن مياه الأمطار الخفيفة والغزيرة سرعان ما تغوص في الرمال، فتستعيد الصحراء مظهرها الطبيعي القاسي ويسود الأرض الجفاف والقيظ من جديد، وموارد المياه في الصحراء على ثلاثة أنواع([2]):

[1] المغربي ابن سعيد، المصدر السابق، ص 115

[2] Coudreau, Opcit, p 2-3.

1- العيون التي تنبجس من تلقاء نفسها، أو التي تجري في قنوات جوفية يطلق عليها اسم الفجارات.

2- الآبار (المؤقتة أو الدائمة والارتوازية)

3- الاحتياطي السطحي الذي تغذيه مياه الأمطار، والبئر هو أعم الأشكال التي تتخذها الموارد المائية في الصحراء الكبرى ، كونها وسيلة للحياة هي أيضا نقطة التقاء ومركز اجتماعي وثقافي وتجاري عظيم القيمة في الصحراء، فعند البئر يلتقي الناس ويتبادلون الأخبار العامة والخاصة، وقد يتبادلون البضائع والمنتجات أيضا ولكن كثيرا ما تكون موضع نزاع وسببا مبررا للحرب بين قبيلتين أو مجموعة من القبائل، ولأهمية البئر الاجتماعية ولخطورة شأنها في الحياة العامة فإن منطقة بأسرها قد تحمل اسمه[1].

بعض الآبار تحتفظ بكل أسرارها ولا يعرف موقعها سوى عدد صغير من الناس ويحرصون على كتمانها في أنانية مشروعة، ولكن البعض الآخر ذو شهرة واسعة ويأتيها الناس من كل فج عميق ويختلط عندها الناس والحيوانات في صخب وجلبة وكأنها سوق عامرة. ومياه آبار الصحراء متنوعة التكوين والمذاق، ولكن بعضها مر أو مشبع بالملح.

[1] العربي اسماعيل، المرجع السابق، ص 19

ĉنهار الصحراb:

إن الأمطار التي تنزل في مختلف أطراف الصحراء وجبالها قد تجري في أودية صغيرة لبضعة أيام أو لبضɣ ساعات في السنة، ولكنها قد تكون أنهارا كبيرة بعضها من أكبر وأشهر أنهار العالم، أهم هذه الأنهار هي التي تلتقي مواردها من ينابيɣ تقɣ خارج الصحراء وفي مناطق أكثر تعرضا لهطول الأمطار.

وأنهار الصحراء الكبرă خمسة أنهار تمتد من الغرب إلى الشرق وهي :

- **نهر النيجر** : تقɣ على ضفته اليمنى في مالي مدينة تمبكتو المشهورة ينحدر من جبال فوطه – جالون ويبلغ طول مجراه 4200 كيلومتر، والمنطقة التي تمتد في أعالي النهر بين جنى وتمبكتو، عبارة عن مجاري ومستنقعات صحراوية ضخمة وهنا تقɣ المنطقة التي تحمل اسم الجرف والتي تعتبر من أصعب المناطق الصحراوية.

والخصاƼص الأساسية المميزة لمنطقة الجرف هي وجود عدد من السبخات ومعادن الملƠ فيها، والتي لعبت دورا اقتصاديا كبيرا في مالي في العصور الوسطى.ومن أهم هذه السبخات تلك التي يذكرها ابن بطوطة باسم تغازă ويسميها المستكشفون الأوروبيون Taraza والتي يسميها ابن سعيد المغربي (حصن الملƠ)([1]).

- **نهر شاري**: ينحدر نهر شاري الذي ينصب في بحيرة تشاد والذي يبلغ طول مجراه 1200 كيلومتر، من جبال المناطق الاستواƼية، ولكن نصف شبكة روافده

[1] العربي اسماعيل، المرجɣ السابق، ص 25

الغربية تنزل من جبال أداماو ونهر شاري، مثل النيجر يحمل إلى الصحراء كميات كبيرة من الأمطار التي تنزل في المناطق الاستوائية.

ونهر شاري هو أكبر الأنهار التي تغذي بحيرة تشاد، والتي هي واسعة وكثيرة المياه ولكنها غير عميقة، وهي تمتد على مساحة 2500 كيلومتر في إفريقيا الوسطى، بين نيجيريا والنيجر والكامرون وجمهورية تشاد التي تحمل اسمها ومياهها مياه عذبة، والمعتقد أنها تتلقى موارد أخرى تحت الأرض ، بالإضافة إلى المياه التي تنصب فيها من الشاري.

- **نهر النيل** : الميزة الأساسية التي يمتاز بها نهر النيل عن كل من النيجر والشاري هي أن نهر مصر والسودان العظيم هو وحده الذي استطاع بفضل موارده المتدفقة ومنحدره الطبيعي اختراق الصحراء في عرضها، ليصل إلى البحر الأبيض المتوسط حاملا معه مياه الأمطار الاستوائية ورواسب تربتها المخصبة (الطمي)، ليخلق في الصحراء جنات وارفة الظلال ومزارع ممتدة الأطراف في البلدان التي يمر بها.

كيف حقق النهر الإفريقي العظيم الذي يبلغ طوله 6700 كيلومتر معجزة اختراق الصحراء الكبرى وتخطي الجبال التي تعترض طريقه من بحيرة فيكتوريا التي تقع بين أوغندا وتانزانيا وكينيا، ليصل إلى البحر الأبيض المتوسط بعدما يمر ببحيرة كيوجا وبحيرة البرت([1]).

يوجد نهر يحمل اسم النيل الأبيض، ونهر آخر يحمل اسم النيل الأزرق ، وأن لكل من النهرين مميزاته الخاصة ، والنيل الأبيض هو النيل الاستوائي الذي يشبه نهر النيجر ونهر الشاري فهو مثلهما يتلقى موارده من المناطق الواقعة

[1] زبادية عبد القادر، المرجع السابق، ص 58، انظر: نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962، ص:115-118.

خاف خط الاستواء، وينتشر في بطائح ومستنقعات عندما يلتقي بالصحراء الكبرى.

يتلقى النيل الأزرق مجموع موارده من سلسلة جبال الحبشة المرتفعة والتي يبلغ علو بعض قممها 4000 مترا، وهذه الجبال الشديدة الانحدار تعطي النيل قوة جارفة في اندفاعه يحمل معها في وقت الفيضان شحنة كبيرة من التراب الأحمر المخصب. وعندما يمر النيل الأزرق بمنطقة بربرا يتلقى آخر روافده التي تنحدر من جبال الحبشة وهو نهر اتيرا، ومن منطقة بربرا إلى البحر الأبيض يجتاز نهر النيل بعدما يلتقي فرعاه في السودان 2300 كيلومتر([1]).

- **وادي الساورة** : هذا النهر على عكس الأنهار المذكورة سابقا، لا يستمد موارده من المياه من المناطق الاستوائية بل من شمال الصحراء، وخصوصا من جبال الأطلس المغربي الذي تبلغ أعلى قممه 4000 متر فوق سطح البحر.

ونهر الساورة مثل بقية الأودية التي تأتي من الشمال لتروي الصحراء بمياهها، والسبب في ذلك أن جبال الأطلس لا تتلقى كميات كبيرة من الأمطار مثل الجبال الاستوائية، وأهم الأودية التي تنزل من الأطلس وتروي صحراء المغرب الأقصى هما واديان : وادي الدرعة ووادي تافيلالت وكلاهما يروي واحات خصبة وجميلة.

وبفضل الأمطار والثلوج التي تنزل في جبال الأطلس يحمل نهر الساورة مياها ذات فائدة عظيمة حتى قلب الصحراء الجزائرية، وهذا التوغل

[1] سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج1، بيروت، 1998، ص 190

في قلب الصحراء ظاهرة لا تشبهها سوى ظاهرة توغل النيل في الصحراء المصرية ومن هنا تسميه البعض "النيل الصغير"([1]).

- وادي اغرغار: إن سلاسل الجبال العالية التي تمتد في داخل الصحراء نفسها تتلقى كميات من الأمطار لا تلبث أن تتحول إلى جداول وأودية([2])، وسلسلة جبال التيبستي هي أشد الجبال التي تخترق الصحراء ارتفاعا وأما جبال آير فإنها ذات ارتفاع محدود ومع ذلك فإن عددا من الأودية إنما تأخذ مواردها من هذه الجبال، وكذلك تنزل عدة أودية من جبال الأهقار، نذكر منها ودي ""تافساسيت" الذي يستقبل عددا من الروافد ووادي "تمنراست" ولكن أهم هذه الأودية جميعا هو وادي اغرغار الذي يبلغ طول نجراه على خط مستقيم منذ منابعه في المناطق الاستوائية حتى يغوص في شط غير بعيد من بسكرة، ومجرى النهر شديد الانحدار حيث أن مستوى منابعه يقع على 2000 مترا فوق مستوى البحر بينما يقع الشط الذي يغوص فيه تحت مستوى البحر([3]).

يتجه اغرغار من الجنوب إلى الشمال نحو الأطلس على عكس نهر الساورة نظرا لأن الأهقار باعتباره جبلا يمتد في قلب الصحراء، يتلقى كميات من الأمطار أقل كثيرا مما يتلقاه الأطلس، فموارد نهر اغرغار أقل من موارد الساورة ، ومستواه أقل ثباتا منه كذلك.

[1] سعد زغلول، المرجع السابق، ص 192.

[2] Coudreau, Opcit, p 2.

[3] العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص29.

الفصـــــل الأول

التجارة والمبادلات التجارية
بين المغرب الأوسط والسودان الغربي

التجارة في الصحراء:

عرفت القارة الإفريقية عبر العصور وجود حضارات متعددة، ودولا قوية سطرت وجودها في التاريخ. وسنسلط الضوء على الأقطار الإفريقية جنوبي الصحراء الكبرى، فيما يعرف ببلاد السودان أو السودان الغربي وعلاقتها بالمغرب.

لقد شهدت هذه المنطقة قيام ممالك مزدهرة حضاريا وقوية اقتصاديا، ومتفتحة خارجيا على الأقطار الإفريقية الواقعة شمالي الصحراء الكبرى. وتأتى لها هذا الانفتاح والقوة بفعل وجود شرايين الطرق العابرة للصحراء، ومراكز تجارية مقصودة من طرف التجار. ورواج تجاري لمواد صلبة أو معدنية تمثلت في الذهب والملح والنحاس بالإضافة إلى الرقيق .

حققت تجارة القوافل ازدهار الحياة الاقتصادية واتساع الممالك وعظم العمران، كذلك زادت من أواصر الصلة والعلاقة بين المجتمعات المغربية والصحراوية. فبفضل التجارة تمكن التجار العرب من التوغل في مدن بلاد المغرب المختلفة ، ومن ثم في المراكز التجارية السودانية وهذا التوغل هو الذي هيأ المجال للعرب ليس فقط لممارسة تجارة الصحراء بل للالتقاء والاختلاط مع بربر الصحراء والتأثير عليهم ، وحدث الأمر نفسه بالنسبة للسودانيين.

كانت القصور والمدن الصحراوية محطة لتوقف القوافل التجارية فكان لها دورا تجاريا هاما، إذ أن القوافل التجارية تجتاز العروق والكتل الجبلية لتتوقف فيها للبيع والشراء والتزود بما تحتاج إليه من الزاد والمؤونة، تقع هذه المدن والقصور في نقاط وصول وانطلاق القوافل التجارية المحملة بمختلف أنواع السلع والبضائع، فتشكل فيما بينها خط مسير يعرف بطريق القصور أو

طريق الواحات، يدوم متوسط كل نقطة وصول من مكان لآخر حوالي عشرة أيام، أما المسافة المقطوعة تقدر بمتوسط الرحلة أي حوالي 50 كم.

وبمجيء الهلاليين وزاولوا هذه التجارة في حوالي 580 هـ/1184م، فكانوا يقومون بنقل البضائع في رحلاتهم بمرافقة قوافل الإرشاد والحراسة([1]).

وهذا ما أكده "موروMauroy " في حديثه عن التجارة بالصحراء إلى أن مسيري هذه التجارة هم سكان المدن البربرية والسودانية، في حين كان البدو الرحل هم من يقومون بنقل البضائع كما سبق الذكر، فيتفاهم رؤساء القوافل مع قادة القبائل الجنوبية لتزويدهم بالأدلاء والحراس مقابل ثمن تختلف باختلاف أهمية الحمولة وقيمة البضائع([2]).

ويذكر ابن بطوطة أن بعضهم كان يستعين بالتكشيف([3]) ونظرا لما تكابده القوافل من مشاق السفر ولا سيما مفاوز من طول المسافة، ووهج الحر وقلة المياه، فقد كان التجار يلجأون إلى عدة طرق وفرت لهم قسطا من الراحة، وقدرا من الماء اللازم لمواصلة السير فيعمدون على اصطحاب جمال غير محملة للسلع، حتى إذا وصلوا إلى موارد المياه اسقوها إلى أن ترتوي وتملأ أجوافها ويشدون أفواهها كيلا تجف، فإذا نفذت أسقيتهم وبلغت حاجتهم إلى الماء نحروا جمالا وترمقوا بما في بطونها([4]).

[1] Rivillois (M),(B), Le Pays d'Ouargla, Sahara Algérien, paris,1975,p22-23

[2] Mauroy,(M), Du Commerce de peuples de l'Afrique septentrional, paris,1845,p63.

[3] ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكيتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992، ص 441-442

[4] ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 7، طهران، 1965، ص821 /وأيضا القز ويني زكريا بن محمد بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، 1380هـ، ص11

عرفت التجارة في الصحراء نوعا من المنافسة بين القبائل العربية والتوارق، لهذا لا يقومون بها من أولها إلى آخرها بل عن طريق التناوب فيما بينهم، فكل منهما تحمل البضائع إلى حدود أراضيها فعرب الصحراء تنقل البضائع باتجاه الشمال، في حين يقوم التوارق ببيع السلع بالتغلغل نحو بلاد السودان([1]).

كانت القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان مرتبطة في وقت خروجها بما تمليه عليها الظروف الطبيعية، فعندما ينتهي قيظ الصيف تبدأ الرحلة مع السحر وتستمر حتى طلوع الشمس واشتداد حرّها فينيخون جمالهم، ويتوقفون عن السير حتى وقت العصر فيستأنفون المسير إلى أن يحل الظلام وتستمر مع بزوغ فجر يوم جديد([2]). فكانت القافلة تتألف من كم هائل من الجمال عابرة وسط صحراء مهددة بمختلف المخاطر، منها التيه والظلال الذي يكون سببا في هلاك القافلة كلها أو بعض أفرادها الذين ابتعدوا عنها، وهنالك الزوابع الرملية بالإضافة إلى غارات القبائل الصحراوية أو ما يطلق عليهم قطاع الطرق التي تكون سببا في تعطيل القوافل أو نهب سلعها.

[1] Carette (E), De Commerce de l’Algérie l’Afrique Centrale et les Etats Barbaresques, paris, 1844, p208.

[2] جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، م و ك، الجزائر، 1982، ص258-259

المبادلات التجارية:

لعبت التجارة دورا مهما في ربط الاتصالات بين السودان وبلاد المغرب الأوسط، واعتمدت كل الممالك التي حكمت السودان على التجارة وما تجنيه من أرباح لدعم حكمها، ولذلك اهتمت بتنظيمها وخصصت لها قواعد ومراكز تجارية هامة .

وكانت بلاد السودان الغربي الموضع الأمثل لهذه التجارة بين البلاد الواقعة جنوبها والبلاد الواقعة شمالها ما وراء الصحراء، واعتبرت كذلك منطقة عبور للسلع بين المنطقتين التي لا غنى لإحداهما عن الأخرى فيما يخص عصب هذه التجارة، المتمثل في مادتين هما الذهب والملح من جهة، والعبيد وريش النعام والعنبر وبعض التوابل، والثياب والأواني النحاسية والزجاجية والتمور من جهة أخرى .

وكانت التجارة عبر تاريخ السودان الغربي مصدرا لغنى الدولة، ومصدرا لجلب أطماع الطامعين في الاستيلاء على هذا الغنى الآتي من تجارة الملح والذهب، وهكذا توالت دول السودان كل واحدة تريد الاستيلاء على هذه الثروة، وجر عليها أطماع البرتغال، وأطماع البلاد الواقعة شماليها، إذ غزاها المرابطون في القرن الحادي عشر الميلادي والسعديون في القرن السادس عشر الميلادي .

ج- تجارة الذهب:

من أجود أنواع الذهب هو ذهب بلاد غانا ويطلق عليه ذهب غيارو([1])، وتعتبر منطقة كوغة من أغنى المناطق لكثرة الذهب فيها([2]) ، وكان الذهب المستورد من غانا وجنوبها يستخدم في سك العملة حيث يعود به التجار إلى دور السكة ليضرب بها دنانير يتصرف بها في التجارة([3]) .

ويلاحظ المتتبع لكتب الجغرافيا والرحلات المتعلقة بالسودان بأن مصدر هذا الذهب هو "بلاد تغازه" التي يذكر الإدريسي بأنها" هي بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة وهي جزيرة طولها 300 ميل وعرضها 150 ميلا. والنيل يحيط بها من كل جهة في سائر السنة([4]) فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر رجع كل من بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة يبحثون طول أيام رجوع النيل فيأخذ كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر([5]). والظاهر أن تغازه التي أشار إليها الإدريسي هي معدنا البامبوك وبوري لأنها كانت من غانا، "ومن مدينة غانا إلى أول بلاد تغازه ثمانية أيام"، كذلك لأن غانا تحكمت في هذا المعدن الذي كان قريبا منها، وتحكمت في أسعاره وكمياته المعروضة في السوق .

[1] المغربي ابن سعيد ، المصدر السابق، ص 93. مدينة في بلاد السودان تبعد عن غانا بثمانية عشر مرحلة، وتحدد بمسيرة ثمانية عشر يوم إلى عشرين يوما، وهي من الأقاليم التابعة لملك غانا. انظر الحميري أبو عبد الله محمد بن محمد، الروض المعطار في أخبار الأقطار، بيروت، 1975، ص427

[2] البكري أبو عبيد الله ، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مطبعة دو سالان، باريس، ص179

[3] الإدريسي أبو عبد الله الشريف، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تصحيح ونشر هينري بيراس، الجزائر، 1975، ص8

[4] الإدريسي، المصدر السابق، ص 39

[5] نفسه، ص 24

وتعتبر عواصم السودان أسواقا للذهب، فقد ذكر الإدريسي أن كومبي كانت - من أكبر أسواق الذهب - مخزنا مهما للذهب الذي تستورده من السودان ليعاد تصديره إلى بلاد المغرب، كما ذكر البكري أن : **"سوقها عامرة الدزار كلانا لا يسمع الرجل فيها كلام جليسنا لكثرة جمعنا وƬوƬ blƬ LJJJj¢ وتبايعهم بالتبر وليƧ عندزام فƬة لا وذزاب ¢ودغشت ¢جود ذزاب ¢JJJال الأر f و¢صحزا**([1]) كما يصف مجلƩ ملك غانا وكيفية تحليه بالذهب إذ يقول " **وملكهم يتحلى بحلي النساb في العنق والذراعين لا ويجعل على ر¢سنا LJ¢ الطراطير المذزابة عليها عمائم القطن الرفيعة....ووراb الملp عشرة من الƎلمان يحملون الحجف لا والسيوف المحلاة بالذزاب**([2]).

ويذكر عز الدين احمد موسى أن التجارة مƴ بلاد السودان تقوم على المقايضة بيت التجار المغاربة والسودانيين في منطقة الساحل الصحراوي، ويدخل السودانيون إلى مناطق الإنتاج الاستوائية، ولما كان السودان مصدر الذهب الأساسي بالنسبة للمغرب فقد كان الذهب من أكثر السلƴ مقايضة ([3]).

ب- تجارة الرقيق:

يذكر الإدريسي عن كيفية الحصول على الرقيق من السودان أن أهالي المدن المجاورة يسرقون أبناء هؤلاء القوم ثم يخفونهم وبعدها يبيعونهم إلى التجار القادمين إليهم من المغرب بدراهم معدودة قائلا:" ويباع منهم في كل سنة أمم وأعداد لا تحصى([4])، حيث يتراوح ثمن العبد العادي ما بين 30- 60

[1] البكري، المصدر السابق، ص158

[2] نفسه، ص 175

3 عز الدين احمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6 هـ، بيروت، 1983، ص 302

[4] الإدريسي، المصدر السابق، ص 33

دينارا، أما في المغرب فكانت إفريقيا السوداء من أهم المناطق التي يتمد منها هذه البضاعة([1]) .

لم تقتصر السلع الواردة من بلاد السودان على الذهب والرقيق بل شملت سلعا أخرى مثل العاج([2]) والشب([3]) وجلود الحيوانات المفترسة كجلد حيوان اللمط الذي يصنع منه الدرق اللمطية التي لا ينفذ منها السهام([4]) .

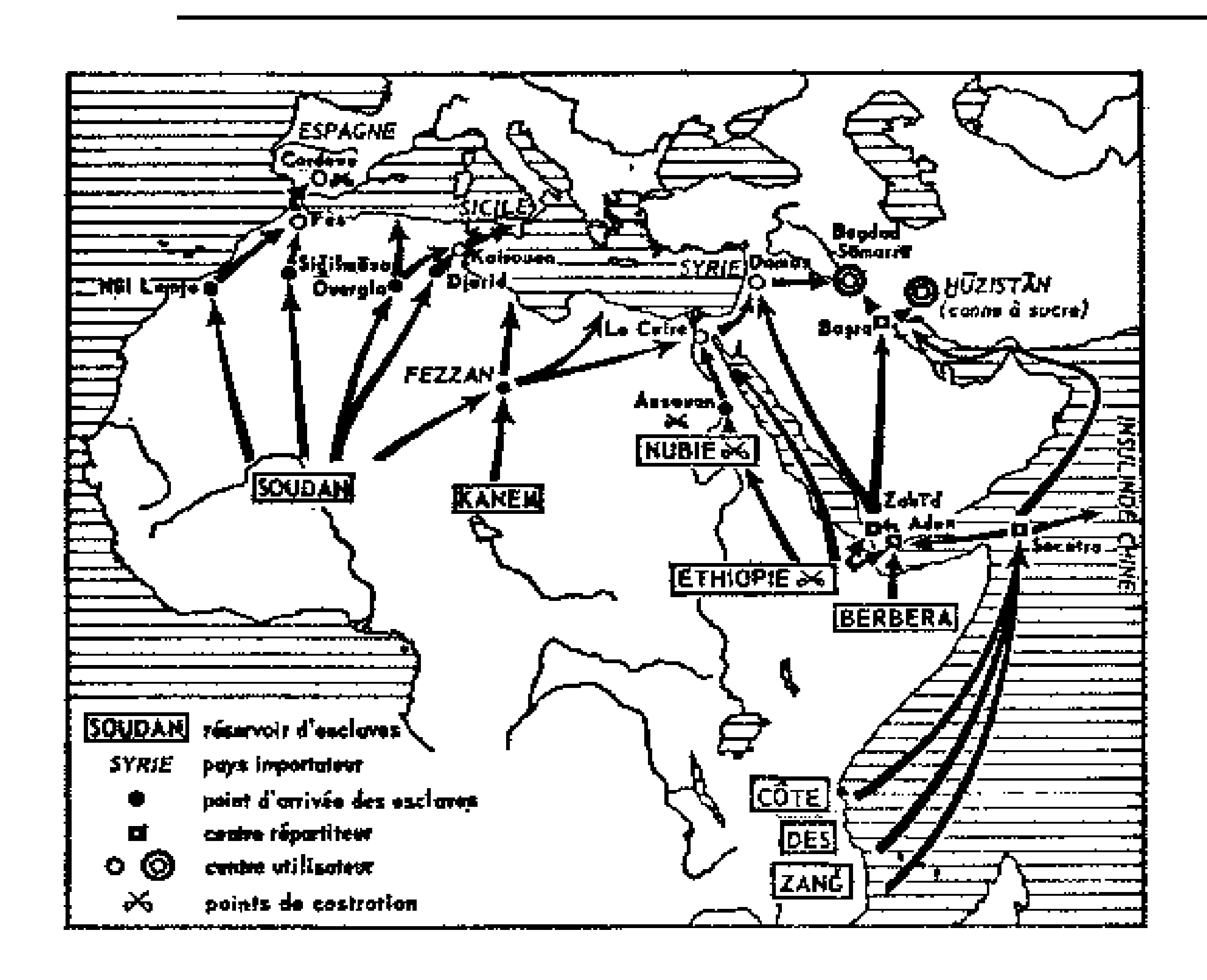
---

[1] باشا نجاة، التجارة في المغرب الإسلامي من القرن 4 إلى القرن 8 هـ ـ ، كليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية بتونس، منشورات الجامعة التونسية، 1976، ص 68

[2] الغرناطي أبو حامد ، تحـ ـفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، م و ك، الجزائر، 1968، ص 43

[3] الإدريسي، نفسه، ص 39-40

[4] أبو حامد الغرناطي، نفسه، ص 43-44



شكل رقم (01): طرق خاصة بتجارة العبيد - (عن Lombard)

ا - تجارة الملح:

تعد مادة الملح من أشهر السلع الصادرة إلى بلاد السودان هي مادة الملح كان يحملها التجار إلى السودان ذلك أن ملوك غانا كانوا بأمس الحاجة إليه([1]) واحتل الملح مكانة هامة في التجارة والمبادلات التجارية، ويقول البكري " **وتجارة أهل بلاد كوكو بالملح ونقودهم**" ([2]).

ارتبط الذهب بمادة أخرى هي الملح، ولا يعني هذا الارتباط وجودهما في مكان واحد أو قربهما، بل هذا الارتباط راجع إلى أن الملح كان السلعة التي يتلهف ويقبل عليها السودانيون المنتجون للذهب والذين يدفعونه للحصول على الملح. إذ يجب مقايضة الملح بالذهب والذهب بالملح. فقد كان الملح بمثابة عملة "**وبالملح يتصارف أهل السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به**".

وتذكر دهينة عطاء الله نقلا عن أبي حامد الغرناطي هذا النص:".. **ويحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدني، فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون في رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم، وبالجبال في القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور، فإذا وصلوا الى غانا باعوا الملح وزنا بوزن الذهب وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم...** " ([3])، ولا

[1] ابن حوقل أبي القاسم، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص 101

2 البكري، المصدر السابق، ص183

3 عطاء الله دهينة، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان عبر الصحراء من ق6-8هـ، مجلة التاريخ، م و د ت، العدد 26، الجزائر، 1992، ص 99.

غنى لأحد عنه في بلاد السودان حتى: "**أن المسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما إنما يحمل قطع ملح**"([1]) .

ويجلب الملح من خارج السودان بالشمال وأشهر أماكنه منجم ملح تغازة وهي على مسيرة 25 يوما من سجلماسة" **وهي قرية لا خير فيها ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر فيها إنما هي رمل**" فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة([2]).

وقد أشار البكري إلى معدن آخر من الملح هو معدن "**تاتنتال**" وهو يبعد بـ 20 يوما عن سجلماسة، وذكر أن "**من غرائب تلك الصحراء ملح تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن ويوجد تحت قناة أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة وعليه حصن مبني من حجارة الملح وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك من ملح ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانا وسائر السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه سائرون وله غلة عظيمة**"([3]).

أما المصادر المحلية للملح بالسودان فقليلة وقد وصف الإدريسي إحداهما بقوله: "**أما جزيرة أوليل فهي في البحر على مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها**".

1 ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 192

2 نفسه، ص 191

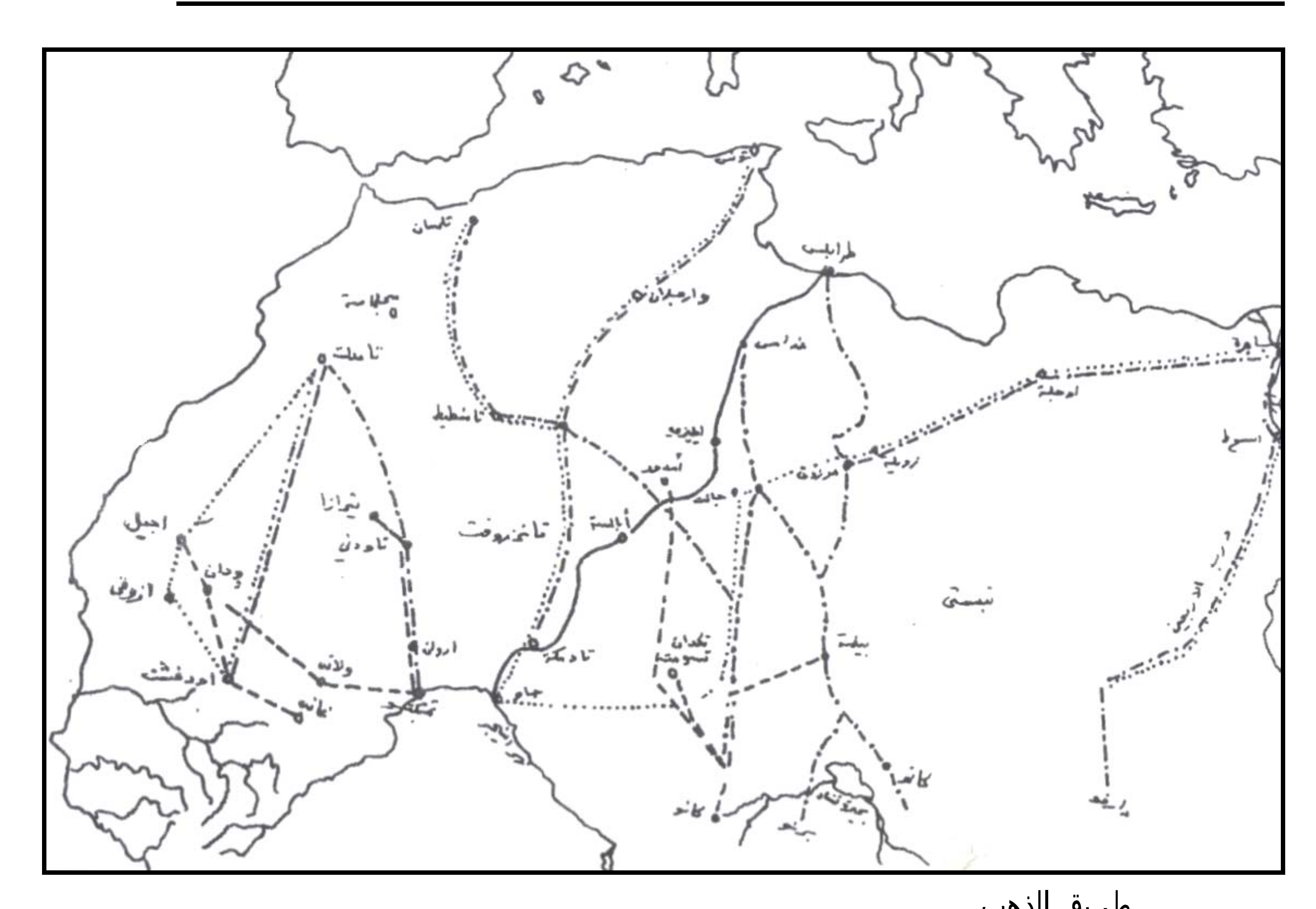
3 البكري، المصدرالسابق، ص 171

وبما أن البلاد الواقعة شمال السودان كانت تتوفر على الملح الذي يحتاجه أهل السودان، وبلاد السودان تتوفر على الذهب الذي يحتاجه أهل الشمال، فقد أدى هذا إلى تقوية العلاقات التجارية بين الطرفين .

وتقترن تجارة الذهب بما يعرف بالتجارة الصامتة، فقد كتب المسعودي أن التجارة الصامتة كانت في أيامه معروفة بسجلماسة ، وتحدث حين يذهب التجار إلى الأهالي الذين يسكنون قرب معدن الذهب ويضعون أكواما من السلع ويضربون الطبول فيخرج الأهالي ويضعون مقابلها أكواما من الذهب ويأخذون السلع، كما كانت هناك سلع وبضائع أخرى يقبل عليها الطرفان، بالإضافة إلى الذهب والملح اللذان كانا يأتيان على رأس محور التجارة السودانية .

ومن بين المعادن التي تصدرها بلاد المغرب إلى السودان معدن النحاس الذي كان يستعمل للزينة، على حد قول ياقوت الحموي "**يسافر التجار من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها غانا وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر... وخرز الزجاج الأزرق وإسورة من نحاس احمر وحلق وخواتيم نحاس لا غير**"[1].

[1] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، دار صادر للطباعة والنشر، ص 12



------- طريق الذهب.

-.-.-.-.- طريق العبيد

_ _ _ _ طريق الملح

شكل رقم (02): الطرق الصحراوية القديمة- (عن الزبير محمد العربي)

- الطـــرق التــجارية

لقد كانت القافلة الوسيلة الأفضل المعتمدة في التجارة عبر الصحراء الكبرى وكانت تتشكل هذه القافلة من الرئيس أو القائد العارف بخبايا الطرق والمحطات بشكل خاص ومرشدين يجيدون اللغة العربية وبعض اللغات الأفريقية بطبيعة الحال ويتقنون أيضاً أسرار النجوم والفلك حتى يهتدوا بها إذا ما ضل بهم الطريق. ويرافق القافلة كذلك بعض التجار أو وسطائهم، وبعض العلماء والفقهاء وكذلك الخدم هذا فضلاً عن العشرات من حيوانات النقل وخاصة الجمال.

من الطبيعي أن تكون هناك مسالك عبر الصحراء الإفريقية، استعملت كطرق للقوافل التجارية، والاتصال بين السودان الغربي ومنطقة شمالي الصحراء. وإلا لما أمكن للقوافل أن تعبر الصحراء ناقلة التجارة، والحضارة الإسلامية والدين الإسلامي إلى بلاد السودان.

لقد أشار أغلب الرحالة الذين زاروا المنطقة مثل ابن بطوطة والحسن الوزان، بأن حركة القوافل كانت نشيطة، بالرغم من الصعوبات التي كانت تواجه التجار والمسافرين، من حرارة ومشاكل التموين من أغذية وماء للشرب، وكذلك أخطار النهب والسرقة وضلال الطريق.

لقد تعدى نشاط تجار المغرب الأوسط الإطار المحلي إلى العالم الخارجي، فسارت قوافلهم في جميع الاتجاهات محملة بمختلف أنواع السلع ويعود الفضل إلى حركة نشاط التجارة الخارجية لوجود هذه العوامل:

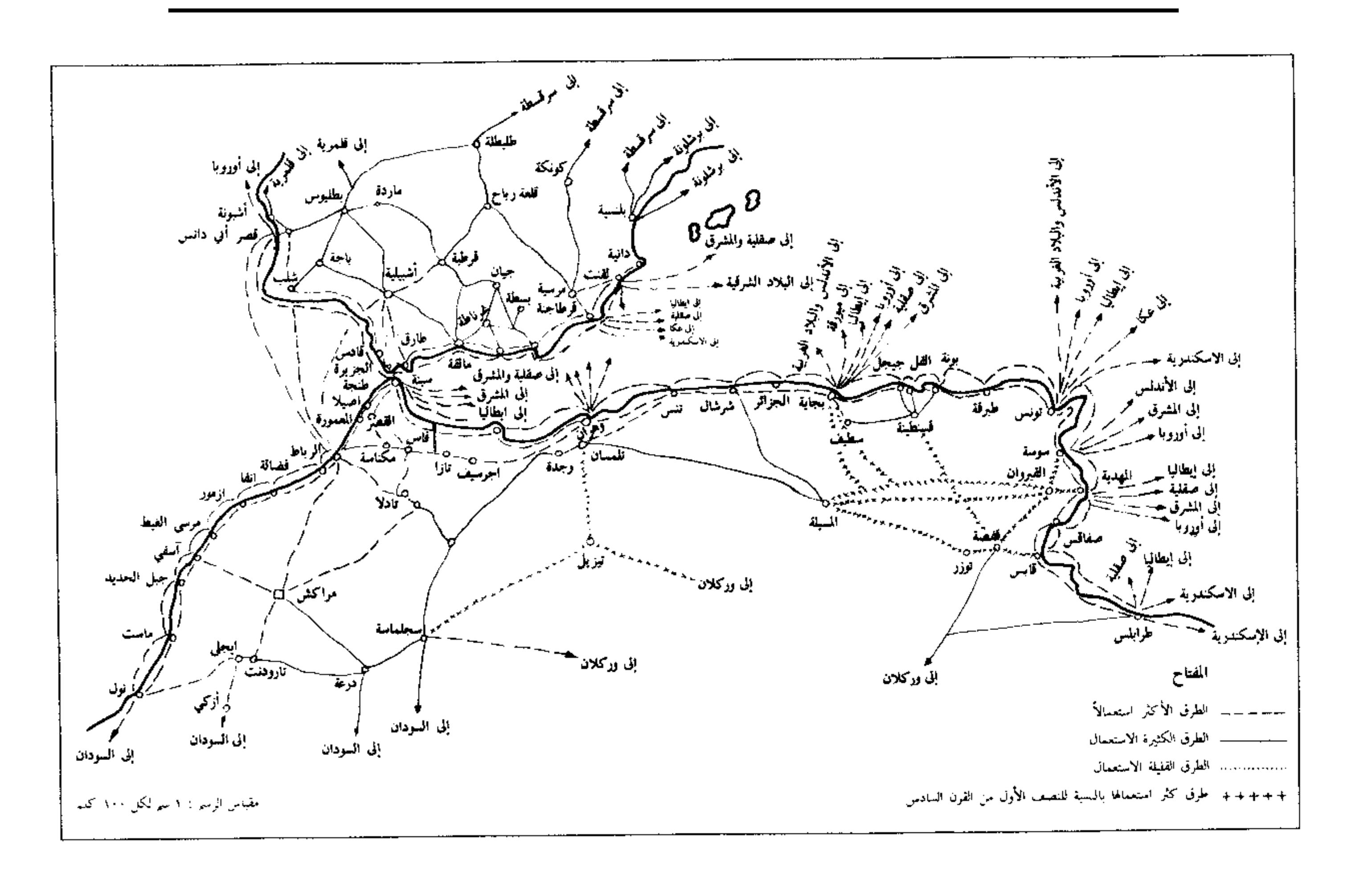
الموقع الاستراتيجي لبلاد المغرب الأوسط الذي يشكل حلقة وصل بين أجزاء المغرب الإسلامي، فهي تربط ولاية افريقية بالمغرب الأقصى ، وبلاد السودان بالأطراف الأخرى. إضافة إلى توفر المواصلات عن طريق الإبل([1]).

يذكر ابن حوقل المسالك والطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل التجارية آنذاك، ويبين المدن والمناطق التجارية الهامة فيقول في هذا الصدد"...**ثم البحر المحيط الجنوب فيمر على ماسة ومغارب سجلماسة وغربوا في بلاد لا عدد لأزالها إلى أن يصل إلى البرية التي لا تسلم إلى الحين** " ويذكر أن المسالك المارة بسجلماسة أو بتيهرت من أهم الطرق الرابطة بين المغرب الأوسط وإفريقيا جنوب الصحراء، كما امتازت هذه الأخيرة بتنوع سكانها فنجد فيها البصري والكوفي والبغدادي والتلمساني "**سكانها رجال العراق وتجار رجال البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق وزام وأولادزام وتجارتهم دائرة ومجردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابقة فلم يدانيها التجار إلى بلاد الإسلام سعة حال**"([2]).

وكانت هناك طرقا رئيسية وأخرى ثانوية، فهناك الطريق الرئيسي فاس السودان، الذي يمر بعدة مراكز ابتداء من سجلماسة فتغازة فتمبكتو بالسودان. وهناك طريق من مراكش إلى سجلماسة فتغازة فالسودان. وطريق آخر عبر وادي درعة فأودغشت فولاته فتمكبتو.

[1] جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية خلال القرنين 3-4 هـ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 193-194

[2] ابن حوقل، المصدر السابق، ص66.



شكل رقم (03): خريطة الطرق التجارية قبل القرن الـ 11.

نقلاً عن: عزالدين أحمد موسى

واتجه بعض هذه الطرق إلى الغرب، والبعض الآخر إلى الشرق حيث تخرج القوافل من تمبكتو فتوات، غرداية فالساحل الجزائري أو التونسي. وهناك طريق يؤدي إلى ليبيا عبر غدامس أو تادمكت وآخر إلى مصر عبر تادمكت، زويلة فواحة سيوة.

ورغم شهرة هذه الطرق ومرور القوافل بها، فلابد من دليل خبير بالطريق وسط الصحراء ليعرف الاتجاه الصحيح، ومواضع آبار الماء بصفة خاصة، حتى لا تتيه القوافل في الصحراء ويموت من فيها وكثيرا ما حدث ذلك.

وقد تحكمت القبائل الصحراوية (مثل مسوفة وجداله ولمتونه) في هاته الطرق وأخذت حظها من الثروة الناتجة عن التجارة، إما بالإغارة ونهب القوافل أو بفرض المكوس والإتاوات عليها. فمثلا تحكمت مسوفة في طريق سجلماسة أودغشت، وسيطرت لمتونة على طريق غانا، سجلماسة والطريق المحادي للمحيط.

لقد كانت الطرق التجارية الكبرى تتحاشى العروق الرملية مثل العرق الغربي الكبير، أو العرق الشرقي الكبير، بما فيها سطح هضبة تادمايت، وذلك لتتبع أماكن تواجد الأودية وتجمعات الموارد المائية وتجعل من الواحات أماكن للراحة وتبادل السلع واستئجار الأدلاء وغيرها([1])، فكانت مدينة وارجلان بواحاتها تجمع هذه الخصائص مما جعلها قاعدة للقوافل التجارية يمرون عليها ذهابا وإيابا وهذا ما أكده الدكتور محمد عيسى الحريري في قوله" وأول هذه القواعد الصحراوية في الدولة الرستمية كانت وارجلان التي ترتبط ببلاد السودان ارتباطا وثيقا، والسفر منها إلى هذه البلاد كان كثيرا " ([2])

ومن بين طرق المواصلات شبكة شرايين تربط بين أنحاء المغرب الإسلامي منها طرق تربط المغرب الأوسط بالقيروان فالمشرق الإسلامي، وطرق تربط المغرب الأوسط بالمغرب الأقصى فالأندلس، وطرق أخرى تربطه ببلاد السودان([3])

---

[1] الحريري محمد عيسى، مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي- الدولة الرستمية، ط2، دار القلم، الكويت، 1983، ص13

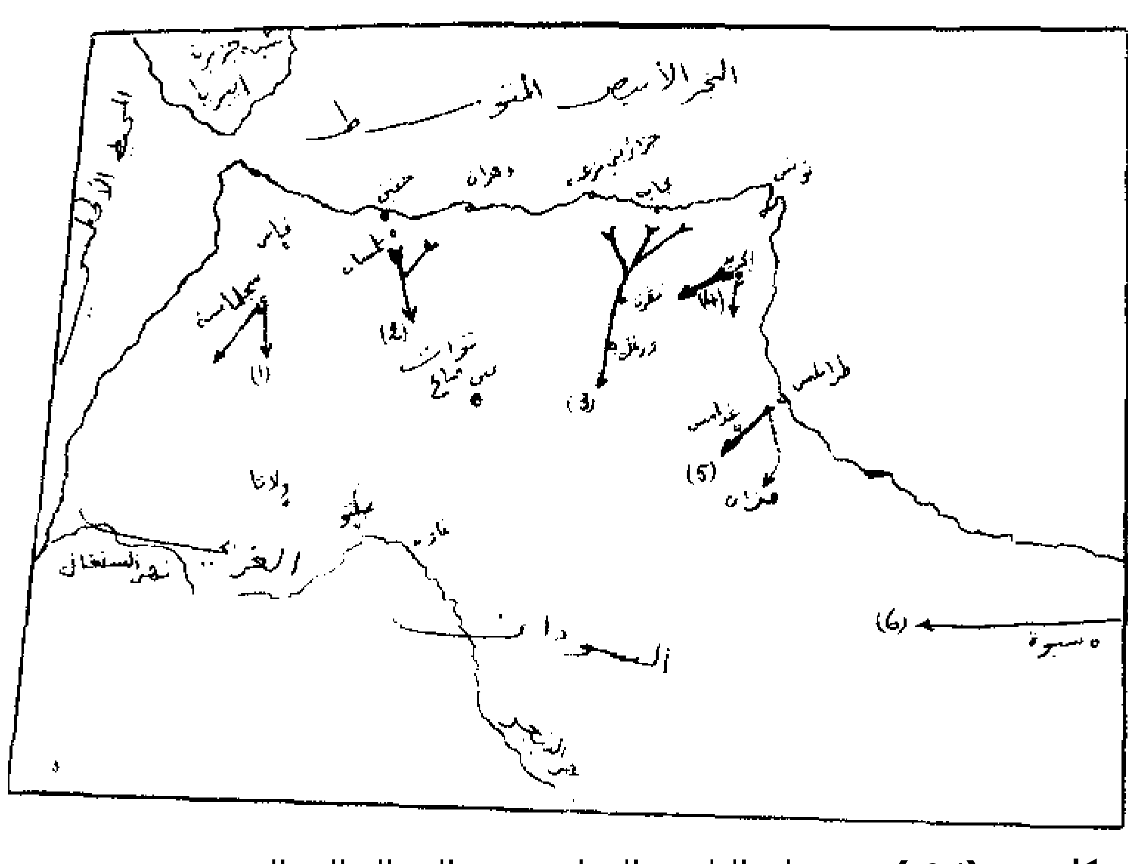
[2] نفسه، ص210

3 جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 202

تجمع أراء الباحثين على أن الطرق أو المسالك الكبرى التي كانت تتبعها القوافل ذهابا وإيابا من والى السودان الغربي هي[1]:

- من سجلماسة ينطلق طريق إلى ولاته ومنها إلى تمبكتو وجنى وغاو.
- تلمسان يمر هذا الطريق بغرداية وتوات وينتهي إلى تمبكتو .
- تقرت ووارجلان ينطلق طريق آخر إلى غاو مباشرة وهذا المسالك يتصل شمالا ببضائع الموانئ الجزائرية الهامة مثل جزائر بني مزغنة وبجاية وسكيكدة ومستغانم وغيرها.
- من واحة الجريد في جنوب تونس، ينطلق طريق أخر غالبا ما كانت قوافله تمر بوارجلان ووادي سوف أو بغدامس في بعض الأحيان.
- من طرابلس الغرب، كان ينطلق طريق آخر يمر بغدامس ويمر فرع منه بفزان ثم ينتهي كل من الفرعين إما إلى بورنو أو إلى غاو.
- وينطلق من مصر يمر بواحة سيوة وتادمكة ثم ينتهي إلى غاو وتمبكتو . (انظر الخريطة)

1 يتعلق الأمر بالقرن الحادي عشر على حد تعبير البكري، انظر: زبادية عبد القادر، عروس مدائن الجنوب الجزائري، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977، ص 142-143.

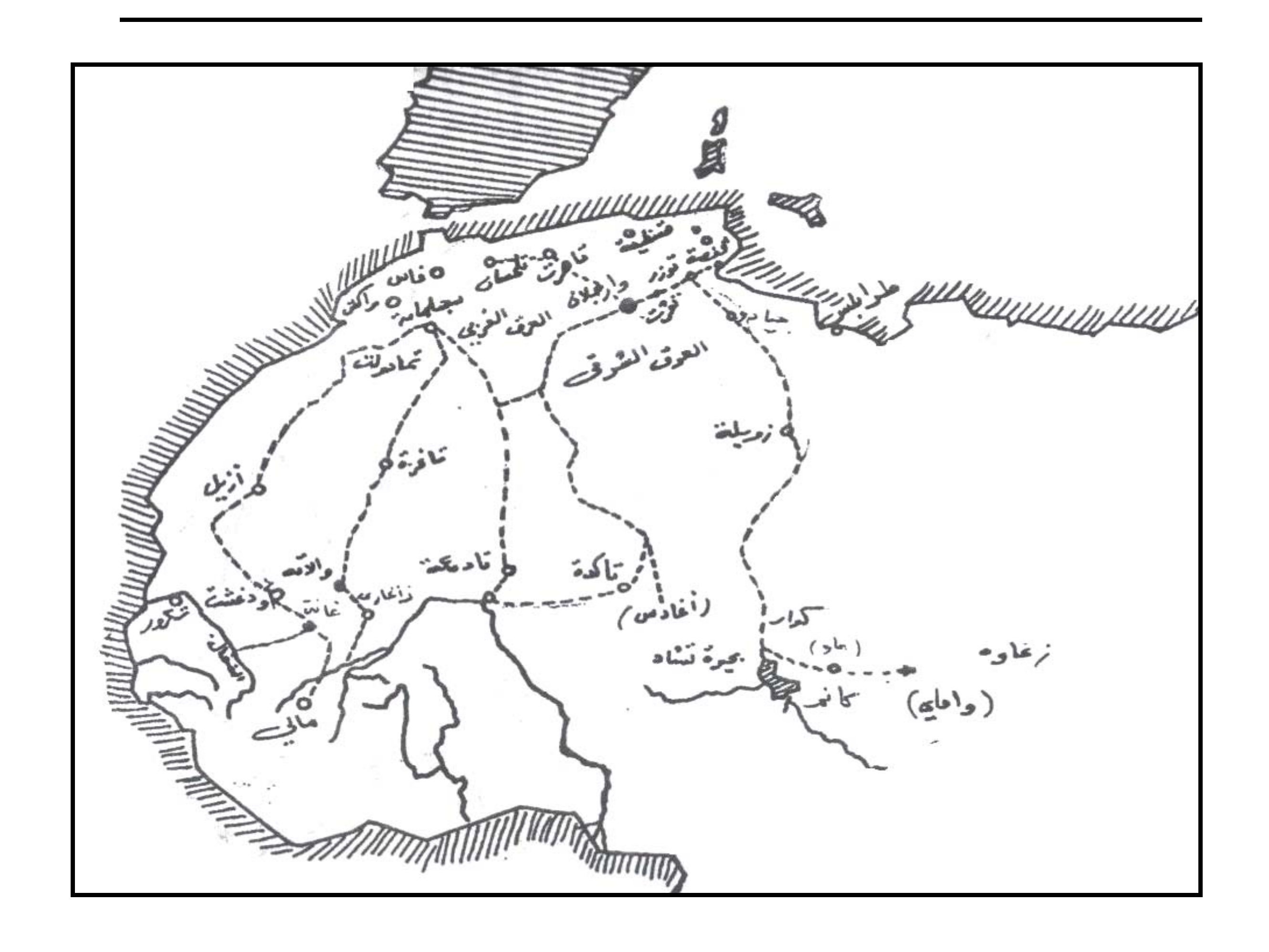


شكل رقم (04): خريطة الطرق التجارية من الشمال إلى الجنوب .

نقلا عن: زبادية عبد القادر

وكما هو موضح على الخريطة فإن مدينة وارجلان ونواحيها كانت بمثابة نقطة تجمع وانطلاق لإحدى الطرق التجارية الهامة عبر الصحراء، وخاصة تلك التي تسلكها موانئ الجزائر الشرقية والوسطى وتونس، فمن مدينة وارجلان إلى غانا ثلاثون مرحلة، والى كوغة نحو شهر ونصف، ومن وارجلان إلى قفصة ثلاث عشرة مرحلة (1).

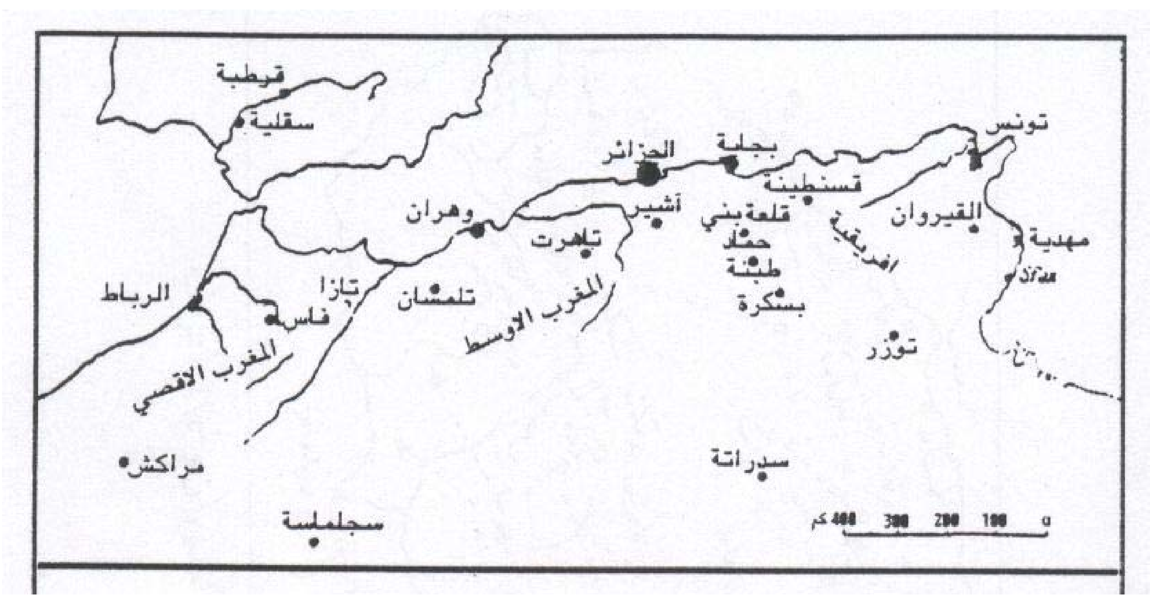
1 الإدريسي، المصدر السابق، ص 160- 161.

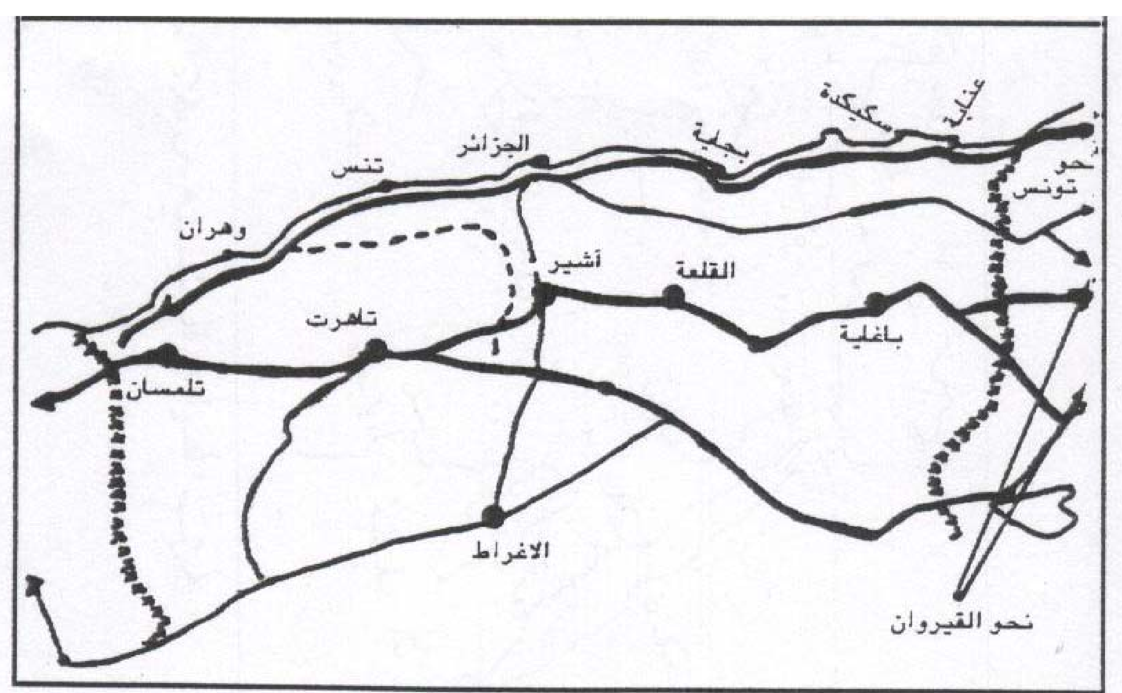


شكل رقم (05): الطرق التجارية الرابطة بين وارجلان وغيرها.

إضافة إلى ذلك هناك مسلكين يخترقان بلاد المغرب اتجاه التضاريس الجبلية من الشرق إلى الغرب وهما:

أ- **طريق الهضاب المرتفعة**: وهذا الطريق يمتد من الجريد بتونس وجبل الأوراس وينبعث منه مسلك فرعي نحو بجاية في الشمال وبسكرة ووارجلان في الجنوب.

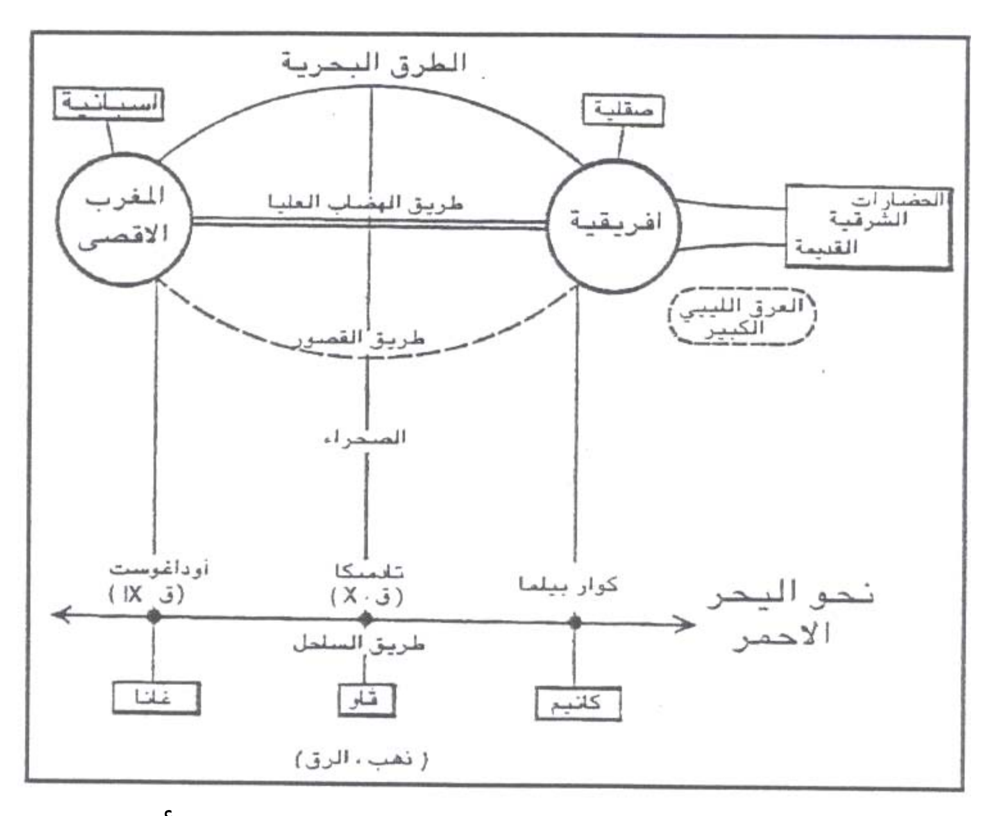




شكل رقم (06): العلاقة ما بين شبكة الطرق ومدن المغرب الأوسط.

(نقلا عن د/ بويحياوي)

ب- **طريق القصور**: طريق منبعثة من مصر المارة ببرقة وطرابلس ثم تتبع السفح الجنوبي من الأطلس الصحراوي متجهة نحو الجنوب الغربي من المغرب الأقصى([1])



شكل رقم (07): شبكة الطرق من وإلى المغرب الأوسط.

نقلا عن: Lombard

إن سلاسل الجبال المتجهة من الشرق إلى الغرب تمكن المسالك المتجهة من الشمال إلى الجنوب من الجمع بين هذين الطريقين ومن المدن الواقعة على هذه الطريق نذكر تيهرت وارجلان وسدراته، أما فاس وسجلماسة ومراكش فهي مدن واقعة بالأطلس المغربي.

[1] باشا نجاة، المرجع السابق، ص 80-81

على هذه الطرق كان الجريد من جهة ووارجلان وميزاب من جهة أخرى ثم في النهاية سجلماسة هي الأطراف الشمالية الثلاثة من طرق القوافل نحو بلاد السودان ، وأنشئت شبكة من المدن كونت باتصالها الواحدة بالأخرى الجهاز الفقري للعالم الإسلامي بالمغرب كما كانت منها دورة التيارات العظمى للتجارة.

لقد كان لهذه المسالك بأنواعها واتجاهاتها دور في تطور العمران الإسلامي، وفي إنشاء مدن ومراكز تجارية هامة خاصة تلك التي كانت واقعة على ملتقى الطرق التجارية المتجهة إلى بلاد السودان([1]).

- المراكز التجارية

كانت لهذه التجارة مراكز إما بالسودان أو خارجه، وهي أحيانا نفسها المنتجة للسلع كمعدن ملح تغازى الذي كان سوقا يتزود منه التجار الذاهبون إلى السودان بحاجياتهم منه، لهذا نال هذا المركز حظه من الثروة، لهذا تفرغ القوافل حمولتها في المراكز الرئيسية لتأخذها قوافل محلية لتوزيعها على مختلف البلدان وهذه المراكز أو المحطات في نفس الوقت تعد مكانا للتموين وتأجير المرشدين والحراس وشراء البضائع([2]).

ويوجد مركز آخر في شمال الصحراء، هو مدينة سجلماسة التي أصابها الغنى من جراء التجارة السودانية. أما في السودان فكانت أودغشت من مراكز التجارة المهمة وقد ذكر البكري أنها، "**مدينة كبيرة آهلة بها جامع ومساجد**

[1] بويحياوي عز الدين ، تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط، أطروحة دكتوراه دولة، الجزائر، 2004، ص 101-102

[2] Chapelle (J), Le Peuple Tchadien ses Racines et sa vie quotidienne et ses combats, Ed l’harmattan, paris1980, p 200-201

كثيرة وبها أنهار عذبة وزام أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة وسوقها عامرة الدزار كالزا([1]).

وكانت عواصم ممالك السودان هي الأخرى مراكز مهمة للتجارة، مثل كومبي عاصمة غانا، وهي سوق مهم لتجارة الذهب قصدها "التجار الموسرين من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى([2]) وقد اضمحلت أهمية هذا المركز بعد استيلاء قبائل صوصو عليها، لصالح مركز آخر هو ولاته الذي قصدها التجار عوضا عن كومبي .

وتغيرت المراكز التجارية حسب الأحوال السياسية في السودان، فبعد ضعف غانة وتغلب مالي عليها، ظهرت مراكز تجارية جديدة استفادت من هذا التغير، مثل مدينة تمبكتو وكانت حاضرة ثقافية ومركزا تجاريا رئيسيا للتجار القادمين من سجلماسة ودرعة وسوس وفاس ومراكش وتوات وفزان وغدامس ومصر.

وظهر مركز آخر هو جني (على الضفة اليسرى لنهر بيني أحد روافد النيجر) بالجنوب الغربي من تمبكتو، وكانت إلى أمد طويل على جانب من الأهمية الاقتصادية إذ هي : "**سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازى وأرباب الذهب من معدن بيط فوجد الناس بركتها في التجارة"**([3])

وأصبحت مدينة كاغ مركزا تجاريا آخر حين تحولها إلى عاصمة لمملكة سنغاي وبلغت أوجها في عهد حكم الاسكيين (الاسقيين) للسودان بحيث

1 البكري، المصدر السابق، ص 158 .

2 الإدريسي، المصدر السابق، ص 45

3 السعدي عبد الرحمان، تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس، 1964، ص11

عرف سوقها رواجا كبيرا لمختلف السلع الآتية من الشمال كالملح والأقمشة والخيول والكتب والسلع الآتية من الجنوب كالذهب والرقيق والعاج كما ذكر الحسن الوزان([1]).

ولا شك من أن علاقات وارجلان التجارية مع السودان الغربي كانت موجودة في القرن التاسع في عهد أئمة تيهرت الرستمية، وأنها كانت في ذلك العصر مرحلة على الطريق التي تصل مدينة توزر جنوب البلاد التونسية بسجلماسة، وكانت مركزا لتهذيب العبيد([2])، وتعد مرحلة من مراحل السفر بين جهات الصحراء المختلفة، وتقوم أيضا بالمبادلات التجارية بين أقاليم شمال الصحراء، وبذلك يمكن اعتبار مدينة وارجلان من أهم مراكز الصحراء الكبرى.

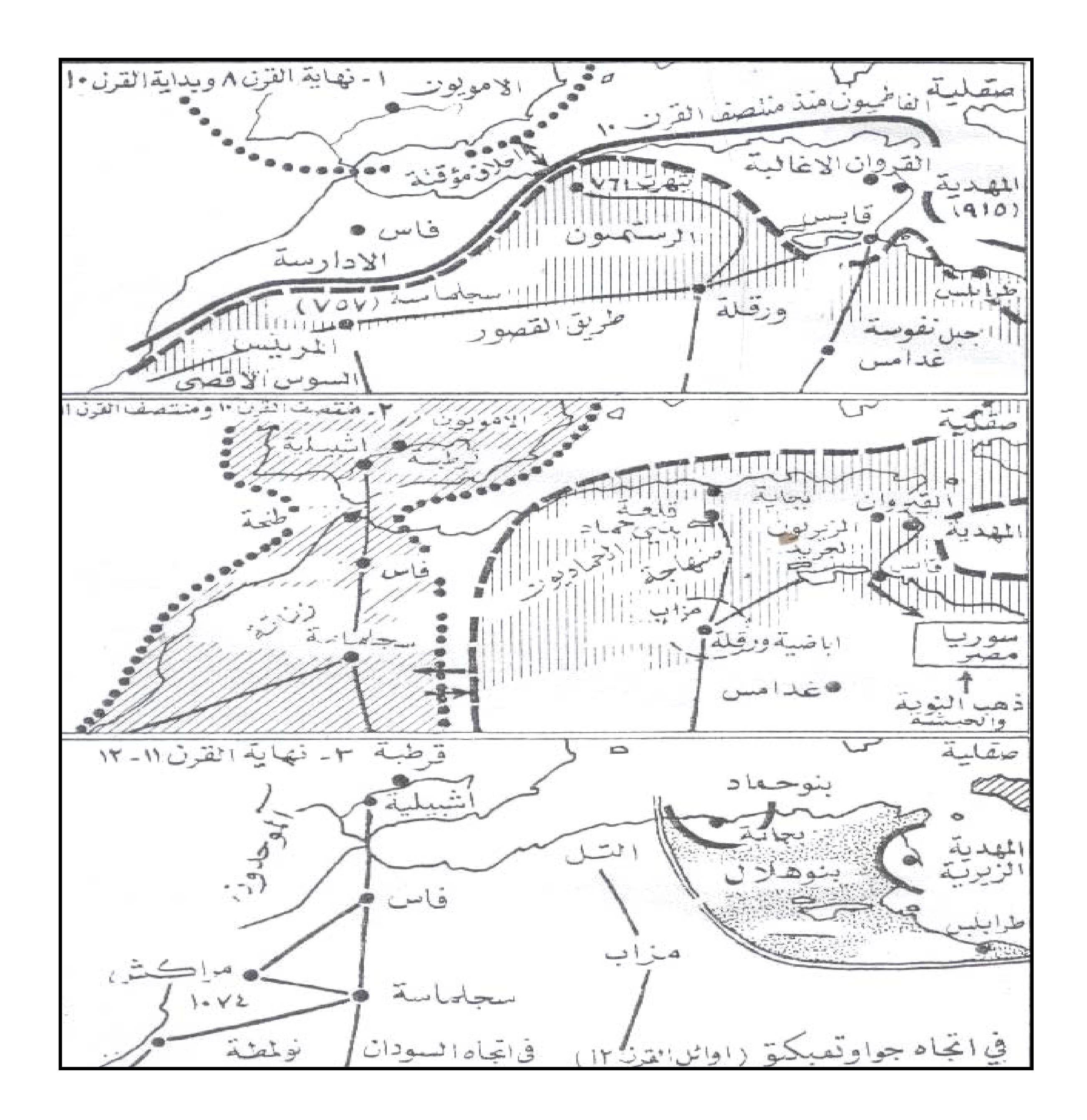
وكانت وارجلان من أهم المراكز التجارية على هذا الطريق، يقابلها على طرف الصحراء الجنوبي تادمكة هذه الأخيرة ظهرت كمركز تجاري قبل القرن الثالث الهجري وأصبحت من اكبر المراكز في نهاية الطريق الأوسط (وارجلان - تادمكة) وقد بدأت تفقد أهميتها كمركز تجاري بعد اتساع مملكتي صنافة وكانم بعد القرن السادس الهجري.([3])

---

[1] الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف افريقيا، ج2 ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 81

2 مكي جلول، تطور ناحية ورقلة مابين 1962- 1975، مجلة الأصالة ، عدد خاص، رقم 41، 1977، ص 147.

3 احمد الياس حسين، المرجع السابق، ص 135ـ136



شكل رقم (08): مدينة وارجلان ملتقى الطرق التجارية.(عن الياس حسين)

ويتضح مما ذكره أبو زكريا الورجلاني الارتباط التام بين وارجلان وتادمكة ونشاط القوافل بينهما، وقد ارتبطت ورجلان لذلك بمملكة غانا عبر تغازة وأدغشت([1])، وقد واصلت وارجلان النشاط التجاري بعد سقوط الدولة الرستمية وانتقل إليها نشاط تيهرت التجاري، فتوسعت أعمالها ويؤكد هذا النشاط التجاري المنتظم ما جاء عن ورجلان من القرن الرابع حتى السابع الهجري، بخصوص حصونها المنيعة وأهلها الأغنياء المياسير بسفرهم الكثير إلى بلاد السودان([2]).

لم تتوقف حركة وارجلان التجارية بعد القرن السابع الهجري عندما خرجت سدراتة بسبب الفتن المتتالية في الجنوب([3])، فقد استعادة مكانتها التجارية السابقة، وقويت علاقتها مراكز صنغاي([4]) استمرت تلك العلاقات حتى مستهل القرن العاشر الهجري، وانعكس ذلك على سكانها الأثرياء الذين اختلطوا بالسودان.

ينبغي علينا أن نفهم العلاقة الموجودة مابين بلاد المغرب الأوسط عامة ومنطقة وارجلان بالخصوص مع بلاد السودان الغربي، ويتسنى لنا ذلك عن طريق معرفة أهمية تلك المدن السودانية حتى نفهم الرابط المادي المتمثل في الطرق التجارية أو غيرها ولهذا نقدم نبذة على الأقل عن بعض المدن منها:

---

[1] كانت تغاز من اكبر مناجم الملح الذي تتردد به القوافل الداخلية الى بلاد السودان وادغشت، اشتهرت كمركز تجاري هام شمال غانة وربطتها بشمال افريقية وقامت به مملكة بربرية نازعت غانة السيطرة على تجارة الصحراء . انظر أحمد الياس حسين ، المرجع السابق، ص 78 ،101،104

[2] البكري ، المصدر السابق، ص182

[3] السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص 581

[4] صنغاي ـ هي المملكة التي قامت في وسط حوض النيجر وكانت مملكة كوكو (جاو) هي أساسها الأول للتوسع وقد كتبت ستغافة ، وسفى، وسنغي ، انظر احمد الياس حسين، المرجع السابق، ص57ـ 58

1- **غـانا:**

التي كانت تشمل جنوب موريطانيا وشرقي السينغال وجزء من مالي وربما غينيا، وهي المنطقة الممتدة شمالي منحنى النيجر الأعلى ومنابع نهر السينيغال، ويرجح أن مملكة غانا قامت خلال القرن 3 م، وامتد عمرها حتى القرن 13 م.

واسم غانا في الأصل لقب ملوكها ثم أطلق على كامل المملكة وعاصمتها كمبي صالح، وقام اقتصاد غانا على التجارة بفضل الموقع الاستراتيجي بين مناجم الذهب شمالا في كل من مدينتي (بامبوك) و(بوري)([1]) ومناجم الملح في الشمال، لذلك استطاع ملوك غانا فتح البلاد بين شمال البلاد وجنوبها في وقت مبكر.

ويصف البكري مدينة غانا بقوله: " ...**مدينة واسعة الأرجاء، ذات أسواق عديدة تزينها أشجار النخيل الغزيرة، وأشجار الحناء تكاد تبلغ الزيتون في الطول، مليئة بالمنازل الجميلة والأبنية القوية الراسخة**... "([2])

لقد وجد المنقبون في عاصمة غانا رماحا وسكاكين وعددا كبيرا من الحراب والمسامير، وأدوات زراعية متنوعة، ومقصا بديع الصنع وأعدادا من الأوزان الزجاجية يرجح أنها كانت تستعمل لوزن الذهب.

استولى المرابطون على مملكة غانا سنة 1054 وعلى مدينة أودغست سنة 1055، وفي سنة 1067 تم الاستيلاء على العاصمة، ونتج عنه انتشار الإسلام في مملكة غانا([3]).

[1] زبادية عبد القادر ، المرجع السابق، ص 58- 59.

[2] البكري، المصدر السابق، ص 23

[3] زبادية عبد القادر، المرجع السابق، ص 61.

2 – **إمبراطورية مالي**:

امتد حكم الإمبراطورية التي شكلها شعب الماندينغو على جمهورية مالي الحالية وعلى السينغال الشرقي وشمال كل من فولتا العليا والداهومي والجنوب الاقصى من جمهورية موريطانيا، وكانت في أيام عزها من اكبر الإمبراطوريات اتساعا في إفريقيا الغربية، وقد بلغت مملكة مالي أوجها في القرن 14م فأصبحت تحدها شمالا الصحراء حيث مصادر الملح تغازة، وامتدت جنوبا حتى أطراف السفانا عند مصادر الذهب، وغربا حتى المحيط، وشرقا حتى مناجم النحاس بتكدا، وبذلك قدر بعض المؤرخين العرب طولها بمسيرة أربعة أشهر من الغرب إلى الشرق، وعرضا بمسيرة ثلاثة أشهر من الجنوب إلى الشمال([1])

ولم ترث مملكة مالي ملك غانة وحده، بل ملكت معه الثروة والغنى المتمثلة في التجارة السودانية خاصة الذهب والملح،وسعت مالي على غرار غانة، إلى تنظيم هذه التجارة بين الشمال والجنوب وتنظيم الأمن ومساعدة التجار وفرض الضرائب على التجارة مما جعلها تجني فوائد هامة ملأت خزائن ملوكها وجعلتهم يشتهرون خارج السودان في العالم الإسلامي وأوروبا .

وظهرت هذه الشهرة في رسم الأوروبيين خرائط للمنطقة منها خريطة رسمها انجلينود ولسيرت الميورقى سنة 1339م، والذي وضع في وسط الصحراء عرشا عليه تمثال كساه بالثياب الملكية وعلى رأسه تاج وذكر أنه ملك مالي. أما الخريطة الأكثر شهرة فهي مؤرخة في سنة 1375م رسمها إبرهام كرسكس في أطلس كاتلان ، وأظهر في وسط الصحراء رجلا ملثما راكبا على جمل ومتجها إلى ملك يجلس على عرش وهو يرتدي ملابس ملكية وعلى رأسه

1 زبادية عبد القادر، مملكة صنغاي في عهد الإسقيين، م و ك، الجزائر، 1971، ص 15

تاج ذهبي ممسكا بصولجان في إحدى يديه والصاجات الذهبية في اليد الأخرى وهو يناولها للراكب .

ولم يكن هذا الملك سوى سلطان مالي المشهور منسا موسى أو كنكان موسى كما يسميه البعض الذي ذهب إلى الديار المقدسة سنة 724هـ/1324م([1]) على حد تعبير عبد الرحمن السعدي إذ يقول:

"في قوة عظيمة وجماعة كثيرة من الجند منهم ستون ألف رجالا ويسعى بين يديه إذا ركب خمسمائة عبد بيد كل واحد منهم عصا من ذهاب في كل منها خمسمائة مثقال ذهاب"

لقد غزا الطوارق من الشمال مملكة مالى نتيجة ضعفها ودخلوا تمبكتو وجنى وهما عصبا التجار بالنسبة لمالي، وتزامن ذلك مع نزول البرتغال بشواطئ السودان الغربي بحثا عن ثروات مملكة مالي وأدى هذا الضعف كذلك إلى خروج عدة ممالك صغيرة من نفوذ مملكة مالي كمملكة تكدا في الشرق التي زارها ابن بطوطة وذكر بأن أهلها يستغلون النحاس الموجود بالمنطقة لشراء حاجياتهم([2])

3- **مملكة صنغاي:**

تأسست دولة صنغاي في القرن 7 م، من قبل قبائل سنغاي المقيمة على وادي النيجر بين بوريم وساي، دخلها الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي على يد المرابطين على المرجح ،ولقب أمرائها بـ "زا" حتى سنة 1335م ثم بـ "سني". وكانت عاصمتهم كوكيا على نهر النيجر الأدنى ثم انتقلت إلى كاغ

1 السعدي عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 7.

2 ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 209.

وقد حكمت مملكة سنغاي عائلة ضياء التي يظن أنها من منطقة طرابلس حتى سنة 1335م حيث أعقبتها أسرة سني . ([1])

وقد ضمت سنغاي الى أملاك مالي منذ سنة1325م، التي كان من عادة ملوكها كلما فتحوا منطقة ما أن يتركوا إدارتها لملوكها القدامى ويأخذوا أبناءهم رهائن يقيمون في قصورهم لتجنب ثوراتهم، وقد أخذ ملك مالي عند احتلاله سنغاي، رهائن من بينهم علي بير (أو علي كولون) الذي هرب من عاصمة مالي إلى كاغ وأعلن نفسه ملكا على سنغاي واتخذ لقب" سني" سنة 1335م وامتنع عن دفع الجزية لمملكة مالي .

وتمكنت هاته الدولة الفتية من صد غارات قبائل الموسى من الجنوب والطوارق من الشمال، وبدأت تتقوى مع صعود سني علي الكبير سنة 1465م، الذي استولى على تمبكتو سنة 1468م، وعلى جني سنة 1473م، ويمكن القول إنه المؤسس الحقيقي لدولة سنغاي بعد أن اتسعت رقعتها إذ نظم الدولة واستفاد من التجارة، لكن أسرته لم تدم في الحكم بعد وفاته سنة 1492م([2])

4- **مملكة الكانم- بورنو**:

تقع قرب بحيرة تشاد وهي من ممالك السودان الأوسط التي عقدت علاقات مع السعديين، تأسست هذه المملكة منذ نهاية القرن السابع ميلادي، وكانت عاصمتها نجيمي، وعرفت ازدهارا في القرنين 13 و14م ([3])، وكانت مستقلة عن ممالك السودان الغربي المشار إليها، وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته إلى السودان فقال : "**بلاد بورنو على مسيرة 40 يوما من تكدا وأهلها**

[1] زبادية عبد القادر، المرجع السابق، ص 66.

[2] السعدي عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 70- 71.

[3] زبادية عبد القادر، المرجع السابق، ص 69

مسلمون لهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب". وقد عاصرت هذه المملكة، مملكة سنغاي والسعديين، واستطاع ملوكها إدخال الأسلحة النارية إلى جيوشهم قبل كل ممالك السودان، مستعينين على ذلك بالأتراك وبالسعديين .

الفصـــل الثــاني

دور الطرق التجارية في نقل المؤثرات الحضارية إلى بلاد السودان الغربي

تأثير المبادلات التجارية:

لعبت المبادلات التجارية أكثر الأدوار أهمية في عبور المؤثرات الحضارية جنوبا قبل الإسلام، ثم أصبحت محطات انطلاق وامتداد للمؤثرات العربية الإسلامية المتجهة جنوبا بعد الفتح، كما مثلت الجسر الأول لعبور التبادل التجاري والثقافي والحضاري بين بلاد السودان وبلاد المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة وشمال إفريقيا من جهة، وشعوب وقبائل الصحراء الكبرى وغرب إفريقيا من جهة ثانية، كما اتصلت قبائل السودان الغربي منذ القديم مع سكان الشمال الإفريقي، وكانت الاسس الأولى والمباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل المنتوجات والبضائع، وعن طريق ذلك انتقلت المؤثرات الحضارية بشكل واسع[1]، وذلك أن التجار الذين كانوا يترددون على المراكز التجارية في السودان الغربي مزجوا بين التجارة والدعوة إلى الإسلام فتأثر بهم السودانيون، فأخذوا عنهم أسلوب حياتهم وتأثروا بثقافتهم الإسلامية.

إن نشاط تيارات التبادل الحضاري عبر الصحراء في الفترة الممتدة من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر الميلاديين لم يسبق له مثيل، ولم يكن دور القوافل السالكة لتلك المحاور مقصورا على نقل الثروات المادية بل حملت معها الرسالة المحمدية والثقافة العربية الإسلامية.

لقد كان التأثير العربي الإسلامي واضح المعالم ومس جميع مظاهر الحياة اليومية لإقليم السودان، ومن بين معالم التأثير إيقاف التناحر القبلي[2] وفقا لتعاليم الدين الإسلامي السمحة مصداقا لقوله تعالى " **يا أيها الناس إنا**

[1] زبادية عبد القادر، عروس مدائن الجنوب الجزائري، ص 141.

[2] قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ط2، الجزائر1975، ص156

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"([1]) ، بالإضافة إلى تواجد مراكز ثقافية لتمبكتو التي كانت منارة للعلم ومقصدا للعلماء من كل جنس ولون سواء كانوا مغاربة، أندلسيون، مصريون أو حجازيون([2]) ، كما تعلم منها العديد من الفقهاء والعلماء وعرف جامعها – جامع سنكري- الذي يشبه الى حد كبير جامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية([3]).

وساهمت طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى مساهمة عظيمة في استمرار هذا التواصل النبيل، ولم تشكل رمال الصحراء الواسعة عامل انقطاع وفرقة بقدر ما شكلته من عوامل الاتصال المثمر والبناء بين الشعوب القاطنة على ضفتي الصحراء الكبرى، وظل التبادل التجاري والثقافي يشكلان العنصر الأساسي للتبادل الحضاري المستمر ما بين شمال الصحراء وجنوبها، ونتيجة لهذا التبادل عرفت المدن الصحراوية الواقعة على مستوى هذه الطرق التجارية ازدهارا كبيرا، وأصبحت بمثابة عواصم ثقافية وسياسية .

[1] سورة الحجرات، الآية:13

[2] حسن احمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ط2، مصر 1964، ص270

[3] نفسه، ص271

دور التجار في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية

لعب المغرب الأوسط دورا حضاريا هاما يشهد له تاريخ السودان الغربي، فكانت المبادلات التجارية والطرق الصحراوية بمثابة مسالك ومعابر انتقلت من خلالها الحضارة الإسلامية والتمكين للدين الإسلامي في الانتشار عبر ربوع إقليم السودان، وانشغل المسلمون أنفسهم بالتجارة ولم يقصروا في شيء من شروطها وأتقنوها علما وعملا، حتى ألفوا في شانها الكتب منها كتاب " **الإشارة إلى محاسن التجارة** " لأبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي في القرن الخامس هجري – الحادي عشر ميلادي، فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه احد إليها، وهو كتاب لا تقل أهميته وقيمته عما بلغ إليه علماء الاقتصاد في هذا العصر([1])

لقد جاب التجار المسلمين الأقطار برا وبحرا ينقلون التجارة من بلد إلى بلد بين شواطئ فارس وسواحل إفريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق، ويقطعون صحاري خراسان وتركستان وأرمينية وأفغانستان والهند والشام ومصر والسودان وإفريقيا والأندلس في نقل أصناف التجارة كأنهم وحدهم تجار الأرض فحملوا معها الإسلام و واللغة([2])، وفي هذا الشأن يقول د. محمد عيسى صابر" **ولقد حمل التجار الرستميون زاذنا الألوان الحضارية، حملوا معهم الإسلام إلى زاذنا الجهات، وكثيرا ما كان يرافق القوافل التجارية عدد من الفقهاء المسلمين، الذين خالطوا رجال البلاد وتركوا فيهم آثارا بعيدة المدى**"([3])، كما أن الرستميون اعتنقوا مذهب الاباضية من هنا

1 جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج5، تعليق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1972، ص 47

2 نفسه، ص 47

3 محمد عيسى صابر، الدولة الرستمية، ص272

نستنتج أن الإباضية كانوا من أول الدعاة إلى الإسلام، خاصة وأنه من أسبق المذاهب ظهورا وانتشارا في شمال إفريقيا عن طريق تجارة القوافل الى بلاد السودان، وبنوا هناك مساجد او بناها أهالي المنطقة تحت إشرافهم.

إذا ساهم العلماء في تغيير وجه إفريقيا وتحويل ديانتها من الوثنية إلى الإسلام، فان دور التجار لا يقل أهمية من حيث المساهمة في نشر الإسلام واللغة العربية، يقول الدكتور عز الدين عمر موسى " **فإذا دخل الإسلام إلى البلاد السودانية مع التجارة فقد أسهم التجار في بسط سلطان الدولة وتوسيع رقعتها بنشر الإسلام بين المجموعات التي زالي غير متجانسة عرقيا، ولذا غدا الإسلام عاملا موحدا، واستفاد الحكام من ذلك فائدة كبيرة، لأن ولاء الأفراد قد تجاوز نطاق القبيلة، وتحول الولاء إلى الحاكم المسلم رمز السلطة الروحية الجديدة**"([1]).

حيث أن التجار ربطوا مختلف المناطق النائية بطرق تجارية لسد احتياجات القبائل والشعوب بالقارة وأنعشوا المبادلات التجارية، هذا من جهة ومن جهة أخرى مكنوا الوثنيين من الدخول في الإسلام بحسن معاملتهم وأمانتهم، فقد كانت لحركة القوافل بين حواضر الصحراء وبلاد السودان أثر كبير في التواصل الروحي العميق، وبذلك واصلوا حركة الفتح في إفريقيا واستطاعوا أن ينشروا الإسلام في مناطق واسعة من القارة وليس لهم من العدة والسلاح إلا الحكمة والموعظة والأسوة الحسنة([2])، وكان لانتشار الإسلام في وادي النيجر اكبر الأثر في نشوء مدينتين إفريقيتين إسلاميتين تعتبران مركز

[1] انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن السادس عشر ميلادي، ندوة العلماء الأفارقة- الخرطوم، 1983، ص51

[2] النحوي خليل ، بلاد شنقيط، المنظمة العربية للتربية والثقافة، تونس، 1987، ص 262

إشعاع الثقافة العربية الإسلامية، الأولى مدينة تمبكتو التي تأسست في القرن 6هـ/ 12 م، على طريق القوافل القادمة من شمال إفريقيا، والثانية مدينة جنى أو جنة المدينة التجارية التي تقع إلى الجنوب الغربي من تمبكتو، فقد هدم سكانها في مطلع القرن 7هـ/ 13م الآثار الوثنية وأقاموا على أنقاضها المساجد ذات الطراز المغربي السوداني([1]).

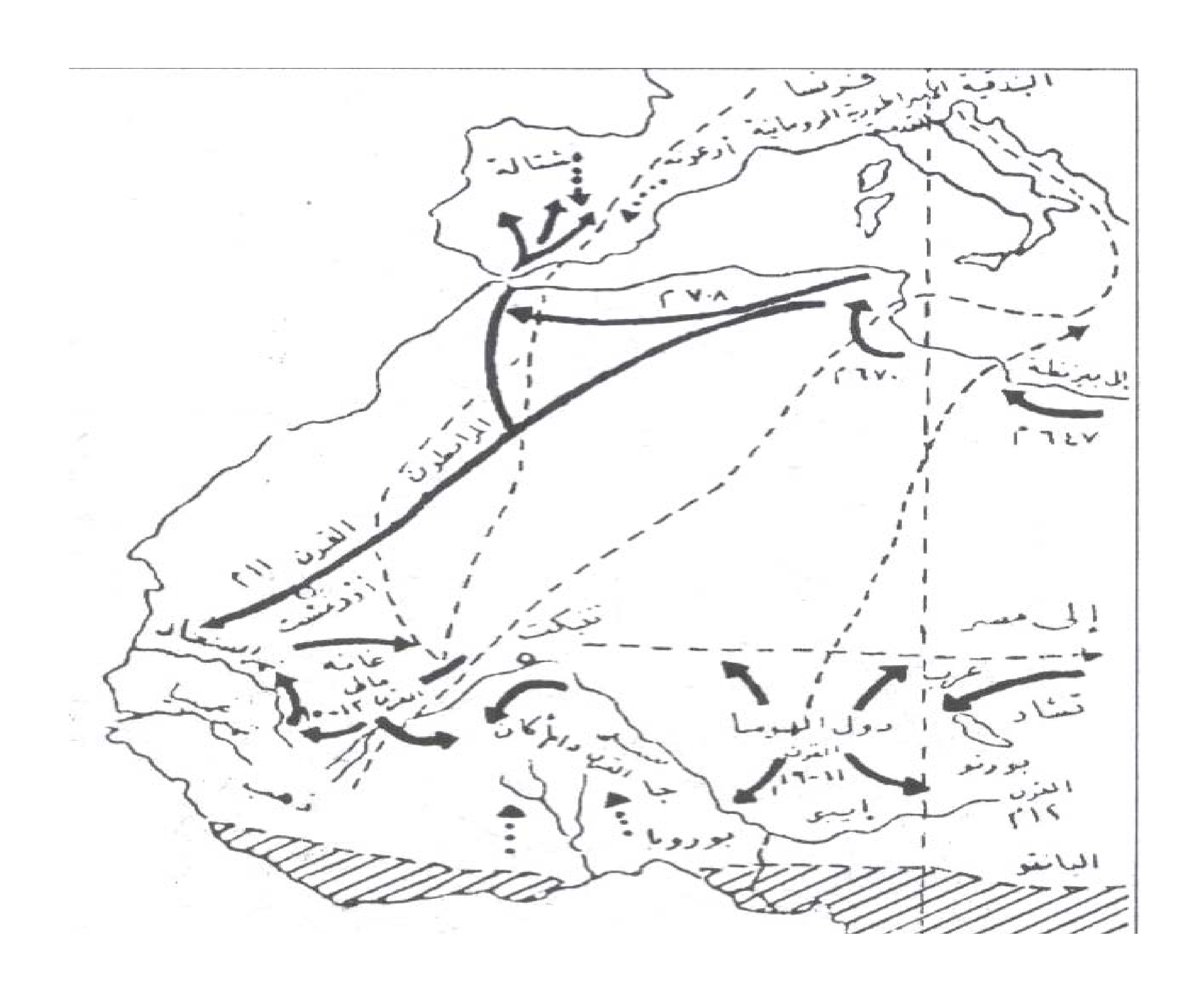
وبازدياد توغل وانتشار التجار العرب في المراكز التجارية السودانية نتج عن ذلك نشوء عدة كمستقرات تجارية إسلامية، فمن بين تلك المراكز التجارية الناشئة في السودان الغربي كان هناك الحي الإسلامي في مدينة غانا، تلك المدينة التي شهدت نشاط تجار العرب منذ وقت مبكر لاسيما أنها كانت المدخل الوحيد للوصول إلى مناجم الذهب الواقعة جنوبها.

ويتضح مما سبق أن الإسلام دخل غرب إفريقيا ووسطها بطريقة سلمية المتمثلة في طريقة التجارة والدعوة الإسلامية، وبما أن دولة غانا من أقدم الدول الإفريقية في تلك المنطقة، فمن الطبيعي أن يدخل الإسلام إليها ثم ينتشر منها إلى البلاد المجاورة، وبعد سيطرة المرابطين على دولة غانا وسيطرة المسلمين التامة على مختلف طرق القوافل التجارية منذ مطلع القرن 5 هـ / 11 م، أصبح الإسلام ينتشر بسرعة فائقة عن طريق الفتح والتجارة والدعوة([2]) وبهذا توسع نطاق الإسلام في البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

---

[1] قداح نعيم، المرجع السابق، ص86

[2] حسن إبراهيم حسين، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة، 1963، ص 99



بعض طرق القوافل والمواصلات الرئيسية

سير الفتوح وحركات الدعوة الإسلامية.

حركات مضادة للإسلام

شكل رقم (09): حركة انتشار الإسلام في السودان الأوسط والغربي ق 7 إلى 19م

(نقلا عن حسن إبراهيم حسين).

إن الصحراء الإفريقية شهدت خلال العصور الوسطى مدا إسلاميا واسعا، عن طريق التجار وسكان المغرب الإسلامي وصعيد مصر وبلاد الحبشة، ولعب المرابطون والموحدون دورا بارزا في نشر الدين الإسلامي حتى أعماق الصحراء، وكنتيجة لذلك قامت بالصحراء مراكز عمرانية وحضارية كبيرة، أبرزها مدينة تمبكتو وجنى وغاو، كما قامت بها مجموعة من الإمارات والممالك الإسلامية سنتطرق إلى ذكرها فيما بعد.

على ضوء ما سبق ذكره، نستطيع أن نقول أن حركة القوافل ونشاطها المستمر وازدهار التجارة ساعد إلى حد كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في القارة الإفريقية جنوب الصحراء عامة وبلاد السودان الغربي خاصة، ويرجع الفضل إلى التجار والدعاة والعلماء الذين قاوموا المخاطر واجتازوا الصعاب.



انتشار اللغة العربية:

لقد بدأت العلاقة التجارية بين المغرب وغرب إفريقيا عامة وبلاد السودان الغربي خاصة، في القرن السابع ميلادي وازدهرت في القرن الحادي عشر، وظلت هذه العلاقة سلمية طبيعية منذ ذلك التاريخ إلى أن تمت بانتشار الإسلام في القارة الإفريقية، فالتجارة بطبيعة الحال تلزم معها إيجاد لغة التخاطب بين البائع والمشتري، وبما أن اللغة العربية كانت من أرقى اللغات المحلية، ومن البديهي أن تكون اللغة المستعملة في ذلك الوقت. ومن الطبيعي أيضا أن يلتقطها التجار الأهالي من إخوانهم العرب وينشرونها فيما بينهم، حتى صار تجار أسواق السودان يلمون بعض الشيء باللغة العربية وبعض اللغات الأجنبية كالانجليزية والفرنسية([1])، وبجانب نشر الإسلام قام التجار بنشر اللغة العربية فهي لغة القران، ولتعلم مبادئ الدين الإسلامي ومختلف العبادات لا بد من ضرورة تعلم اللغة العربية، كما استعمل التجار اللغة العربية في معاملاتهم

أثناء البيع والشراء، أدى هذا إلى انتقال أسماء الأوزان والمقاييس والمكاييل إلى اللغات المحلية([2]) .

هذه العلاقة التجارية إذا هي التي وضعت الحجر الأساسي لانتشار اللغة العربية في إفريقيا وبلاد السودان، بدا أولئك التجار يدخلون كلمات وتعابير عربية في تلك المناطق وبذلك انتشرت حتى توغلت واندمجت في لغتهم المحلية

[1] العراقي سيد احمد ، تجارة القوافل بين شمال وغرب إفريقيا وأثرها الحضاري، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة، م ب د ع، بغـ ـداد، 1984، ص 152

[2] الشيخ الأمين عوض ا ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن 16م، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، م ب د ع، بغداد، 1984، ص 95-96

خاصة أسماء تلك البضائع التي كانت تصدر إليها من المغرب، فكلمة السرج والحرير والزعفران واللجام والقلم والدواة كل هذه الأسماء عربية ولكن يطرأ عليها تحريف بسيط.

تأثير العلماء والفقهاء:

إن العلماء كانوا يتميزون بروح مفعمة بالحيوية والنشاط وعدم الاستقرار في مكان واحد محاولة منهم لتعميم رسالتهم ونشر علمهم ودعوتهم إلى الإسلام والحض على التمسك بمبادئه فمنهم من شغل مناصب عليا في جامعات تونس وجامعة القرويين بفاس ([1]).

لقد أصبحت المراكز الثقافية في السودان الغربي مقصدا للعلماء والفقهاء والذين كان بعضهم أئمة بمساجدها، قامت مدينة تمبكتو بدور ثقافي بارز في السودان الغربي وكانت قلب الحركة الفكرية النابض اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون وتعلم بها العديد من العلماء والفقهاء، والفت بها العديد من المؤلفات وكان جامعها الشهير جامع سنكري يشبه من وجوه كثيرة جامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية، وأمست مكانة تمبكتو من الناحية الثقافية لا تقل عن مكانة القيروان في افريقية أو فاس في المغرب الأقصى أو قرطبة في الأندلس أو القاهرة في مصر([2]) ، فكان رجال الفتوى يتقرب إليهم السلاطين الذين كانوا يدفعون لهم رواتب خاصة([3])، ولهم الفضل في نقل الإشعاع الثقافي الإسلامي إلى شعوب القارة السمراء وخاصة غرب السودان الغربي، وتغلغلت الثقافة العربية وأصبحت اللغة العربية لغة التخاطب في المراسلات الرسمية للدول

[1] الحفناوي أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، الجزائر، 1906، ص 22

[2] حسن احمد محمود، المرجع السابق، ص 270

[3] Echallier (J,C) Village désertés et structures agraires ancienne du Touat, Gourara Algérien, paris, 1972,p7.

الإفريقية الإسلامية، بالإضافة إلى ذلك أنها كانت اللغة المستعملة في التجارة التي كانت بأيدي العرب وكان للعرب في عاصمة غانا القديمة كمبي صالح اثنا عشر مسجدا الحق بكل مسجد مدرسة قرآنية لتعليم اللغة والفقه الإسلامي، كما اتجه حملة العلم من الأفارقة نحو الكتابة لتبليغ أحكام الإسلام وعلومه فكتبوا باللغة العربية واستخدموا الحرف العربي وبذلك ساعد في انتشار الشعر في اللغات الإفريقية المكتوبة بالعربية أو لغات السونغاي، وتوجد في تمبكتو سوق رائجة للمخطوطات العربية من الكتب التي كانت تأتيها من المغرب، فتجارة الكتب عادت بأرباح تفوق ما يجنيه التجار من أية بضاعة أخرى[1] فأثمانها باهظة ويجني منها التجار فوائد عظيمة ونظرا لهذا الاهتمام بمجال الكتب والمخطوطات في السودان نشأت حرفة أخرى وهي حرفة الوراقين.

لقد قامت بين تمبكتو وبين جامعات المغرب الإسلامي علاقات وثيقة إذ تدين مدينة تمبكتو في ثقافتها وحضارتها إلى المغرب فكانت على اتصال وثيق وغير منقطع بمراكش وتونس والجزائر ، وكان علماء المغرب دائبي الرحلة إليها ويعملون ويتعلمون.

1 Echallier, op.cit, p7

تأثير الزوايا والطرق الصوفية:

لقد ساهمت الزوايا بفضل العلماء والفقهاء مساهمة فعالة في نشر اللغة العربية الى جانب انتشار الدين الإسلامي، فكانت تقوم بمهمتين أساسيتين وهما العبادة والتربية في آن واحد، توجد داخل هذه الزوايا كتاتيب قرآنية التي يلقن فيها المعلمون أبناء البربر الصغار مبادئ اللغة العربية، وينظم فيها حلقات ليلية لتدارس تعاليم الدين الإسلامي، وهذا ما عجل في انتشار الإسلام واللغة العربية في بلاد السودان الغربي.

يطلق مصطلح الزاوية في بلاد المغرب الإسلامي على الأماكن المخصصة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين([1])، أما في بلاد المشرق فتعرف بالرباط أو الخانقوات وهي مخصصة للعبادة والمتصوفين، التي انتشرت في جميع أقطار المغرب الأوسط، إذا فالزاوية عبارة عن بناية ذات طابع ديني متعددة الغرف تفتح أبوابها للفقراء والمساكين وعابري السبيل والمسافرين. ومن وظائفها الجليلة تعليم الدين الإسلامي وتدريس القران الكريم وتحفيظه للطلبة الراغبين لحفظه، وتشتمل على مسجد وغالبا ما نجد ضريحا لصاحب الطريقة على سبيل المثال نذكر الزاوية التيجانية([2])، التي قامت بدور هام حيث اعتبرت مركز إشعاع يجتمع فيه الوافدون من مناطق مختلفة للتزود بالعلم وأصول الدين ، واشتهرت الزاوية في عهد الاستعمار، وبلغت قمة انتشارها في إفريقيا([3]).

1 التلمساني محمد ابن مرزوق ، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس، تقديم محمود بوعياد، ش و ن ت، الجزائر 1981، ص 413

2 حبيب محمد، زوايا العلم والقران بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، د.ت، ص 27- 28

3 النحوي خليل، المرجع السابق، ص 123.

كما انتشرت الزوايا ومعاهد العلم في بلاد السودان الغربي في كل من كانم وبورنو([1])، بفضل العلماء المهاجرين من المغرب، كما أن التعليم في هاتين المدينتين بلغ مستوى رفيعا من التقدم إبان القرنين 13و14 م.

إن قدوم عدد كبير من التجار والفقهاء والدعاة العرب المسلمين من الشمال بعث رقيا حضاريا في إفريقيا الغربية عامة وفي السودان الغربي خاصة، فساهموا بذلك في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية في ربوع تلك المنطقة، وقد التحق كثير منهم بالملوك والأمراء وعملوا في خدمتهم وقدموا لهم الخبرة والثقافة وحببوا إليهم الدين واللغة العربية فاعتنق هؤلاء الحكام هذا الدين، فقلد الشعب وعامة الناس حكامه حتى شهدت إفريقيا الغربية نشاطا عظيما وحماسا عجيبا من اجل الجهاد وأقام بذلك السلطان موسى صاحب مالي في القرن الرابع عشر ميلادي والسلطان محمد الحاج صاحب غاو في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ثم من بعده أمراء السينيغال([2]).

[1] زبادية عبد القادر، الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية وجنوب الصحراء، م و ك، الجزائر،1989 ص29

[2] قداح نعيم، المرجع السابق، ص 94-95

تأثير الهجرات الجماعية:

إن أهم ما تمخضت عنه الهجرات الجماعية وشبه الجماعية إنشاء الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وانتشار الإسلام وسط الوثنيين وهي الناحية الايجابية في ظاهرة النزوح والهجرة، فظاهرتا الحل والترحال التي تميز أهل المنطقة من تجار وقبائل كحال قبيلة كنته([1]) ذات الفروع المختلفة في بلاد المغرب الأوسط والنيجر والسينغال وغيرها، التي شهدت الحل والترحال بين إقليم توات وبلاد التكرور.

لقد كانت علاقة الجوار ورابطة القربى بين بلاد المغرب الإسلامي عامة وبلاد المغرب الأوسط خاصة وجيرانهم الأفارقة عاملا مساعدا في نشر الإسلام في مناطق بلاد السودان الغربي، وفي الحقيقة منذ القرن 1هـ / 7 م إلى حوالي منتصف القرن 10 هـ / 16 م، حفلت بلاد السودان الغربي والأوسط بالآلاف من المسلمين الوطنيين والمستوطنين، ومن الرحالة والتجار المسلمين من شتى أصقاع العالم الإسلامي ومن بلاد المغرب الإسلامي في شمال إفريقيا، حيث نسج الجوار الجغرافي خيوط الألفة بينهما وتطورت هذه الأخيرة إلى علاقة عائلية في بعض الحالات حيث امتزج الدم العربي البربري بالدم الإفريقي، منذ عهود مبكرة وحرصت الشعوب والقبائل الإفريقية التي اعتنقت الإسلام على تأكيد نسبتها العربية، فالكثير من القبائل التكرورية والفلانية المنتشرة حول ضفاف نهر السنغال ونيجيريا تعتبر نفسها ذات أصول عربية، وهي مجموعة بشرية ذات تاريخ عريق وإسهام جليل في نشر الإسلام والحضارة العربية، كما أن ألوان بشرتهم فاتحة تميل إلى السمرة يدرك من يراهم أن دمهم مزيج من الأفارقة والعرب النازحين من الشمال.

[1] André (Z), Le Commerce de détail dans un ksar du Touat, supplément au bulletin de liaison saharienne, N° 41, Mars 1961, p9.

لقد ظل التبادل التجاري والثقافي يشكلان العنصر الأساسي والوحيد للتبادل الحضاري المستمر ما بين شمال الصحراء وجنوبها، نتج عنه ازدهار المدن الصحراوية الواقعة على طريق القوافل التجارية وأصبحت بمثابة عواصم ثقافية وسياسية هامة تتمتع بعلاقات خاصة مع ممالك السودان الغربي، وتلعب دور الوسيط بينها وبين مدن الشمال([1]).

ومن الناحية العمرانية فيظهر التأثير من خلال البناء بالطوب المحروق في قصور السلاطين والأمراء والعلماء وكبار التجار والأعيان والمساجد الذي تأثر بالطراز المغربي الذي يمتاز باتساع الفناء وكثرة الأعمدة والدهاليز ويبدو تأثير الحضارة الإسلامية واضحا في المدن التي نظمت من حيث تخطيطها لتلائم حياة المجتمع الإسلامي وفي بناء المساجد أفقيا وتنظيم المخازن والمتاجر حولها وإقامة أجنحة خاصة في كل مسكن لاستقبال الضيوف.

[1] زبادية عبد القادر، المرجع السابق، ص 142.

الفصـــــل الثالث

تطور المدن في المغرب الأوسط في العهد الوسيط

علاقة المدن التجارية ببلاد السودان:

عرف العالم الإسلامي ابتداء من القرن الثاني إلى الرابع الهجري تطورا عمرانيا كبيرا، ويعد تأسيس المدن أبرز سماته، وقد أصبح بعضها يمثل أكبر مدن العالم (ألح الباحثون الغربيون الذين درسوا المدينة الأوروبية في العصور الوسطى كثيرا على القوة الخلاقة لمدن الغرب دون أن يهتموا بدور المدن في الحضارات الأخرى، إن غياب اهتمام المؤرخين والباحثين الأوروبيين بالمدن الأخرى التي وجدت في الحضارة الإنسانية خلال العصور الوسطى، وأشار إلى أن الباحثين الأوروبيين قد بالغوا في وصف قوة الإبداع لمدن الغرب مع سوء تقييمهم لمدن أخرى غير أوروبية، وقيل أن المجتمع الإسلامي هو مجتمع مدن([1])، كما يلاحظ أن التطور العمراني للعالم الإسلامي، قد حدث خلال فترة ازدهار الحضارة الإسلامية، واعتمد أساسا على الازدهار الاقتصادي الذي يكاد ينحصر في تلك الفترة على النشاط التجاري، وهو النشاط الذي يكمن وراء تطور المدن وانتشار شبكة المسالك التجارية البرية والبحرية معا([2]).

وفي هذا الصدد أشار ابن خلدون إلى العلاقة بين العمران والازدهار الاقتصادي حيث قال" **ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر**"([3])، وكان للمدن المغربية دورا بارزا في المبادلات التجارية بينها وبين بلاد السودان، وذلك بسبب ارتباطها بشبكة من المسالك التجارية ببلاد

[1] الجثماني الحبيب، المغرب الإسلامي_الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرنين(3-4هـ/9- 10م)، الدار التونسية للنشر، ش و ن ت، الجزائر، 1978 ، ص14

[2] نفسه، ص14

[3] ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج3، القاهرة، 1967، ص1009

السودان.فكانت القيروان بداية الانطلاق، وسجلماسة بوابة بلاد السودان في المغرب.

يبدو من خلال التطور التاريخي للمدن في المغـرب الإسـلامي، أنهـا ساهمت بشكل كبير في العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان عبر المسالك والطرق التجارية التي كانت تربطها بمدن بلاد السودان، ومن بين المدن المغربية التي كان لها دور أساسي في هذه العلاقات القيـروان وتيهـرت وسجلماسة، أما المدينة التي كانت تشكل حلقة الاتصال التجاري بين المغـرب الإسلامي وبلاد السودان هي مدينة أودغست.

فما هي علاقة هذه المدن التجارية في المغرب الإسلامي ببلاد السودان؟ فمدينة القيروان كانت نقطة الانطلاق في ضبط المسالك وتحديد المسافات التـي تحدث عنها الجغرافيون العرب، وبقيت منذ تأسيسها إلى سقوطها في منتصـف القرن 5 هـ/ 11م، أهم مركز مغربي في حركة النقل التجاري فكانـت نقطـة لقاء بين المغرب والمشرق وقوافل التجارة الصحراوية، وكانت علاقة القيروان ببلاد السودان وهي علاقة قديمة تعود إلى بداية القرن 2 هـ / 8 م، فقد أرسل عبيد الله بن الحبحاب بعد أن ولى إفريقية والمغرب سنة116هـ قائده حبيب بن أبي عبدة إلى المغرب الأقصى، فغزا السوس الأقصى، وبلغ أرض السودان([1]).

[1] ابن عذارة المراكشي، البيان المغرب في أخبار والمغرب،ج1، ط 2، مكتبة صادر، بيروت، 1947-1950، ص51

وقد تطورت العلاقات التجارية بين القيروان وبلاد السودان خلال القرن الثالث الهجري وكان مصدر ثروة لعدد من تجار المدينة، فقد اسـتأذن أحـدهم الإمام سحنون أن يبني قنطرة يجوز عليها الناس على دار سحنون، فأبى ذلـك لأن كسبه كان من بلاد السودان.

وكان علماء القيروان يتورعون من مال التجارة خاصة من تجارة بـلاد السودان لما اشتهرت به من ربح فاحش أو استغلال، وجاء فـي ترجمـة أبـي الفضل أحمد بن علي أحد تلاميذة سحنون أنه ترك من ميراث أبيه أكثر من ألف دينار لم يرثها، فسئل عن ذلك فقال:"**كان من تجارة العاج فكرهتها لما جاء فيـها عن أهل العلم**"([1]).

أصبح السودان مصدرا ثريا يمد القيـروان وبقيـة المراكـز التجاريـة المغربية بما تحتاجه من رقيق، وهي الفترة التي كان فيها صائغ القيروان يصدر بضاعته إلى بلاد السودان، وكان إبراهيم بن الأغلب يتخذ الحرس مـن العبيـد السود خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

أما بالنسبة لتيهرت الرستمية فقد تطورت الحركة العمرانية بها نتيجـة التطور الاقتصادي ولاسيما تجارتها، وكانت ملتقى لطريقين تجاريين رئيسـيين لعبا دورا هاما في الحياة التجارية المغربية من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الثاني عشر وهما طريق الشرق والغرب، أي من بلاد مصـر إلـى شـواطئ المحيط الأطلسي الذي يربط المدن الواقعة على حدود الصحراء مع تجارة بلاد السودان([2])، وطريق جنوب شمال أي بلاد السودان والمدن الصـحراوية إلـى

[1] المالكي أبو بكر عبد الله، رياض النفوس، ج1، القاهرة، 1951، ص388

2 الجيلالي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 175.

شواطئ البحر المتوسط. بالإضافة إلى موقع تيهرت الجغرافي الذي سمح لها بالتحكم في الطريقين التجاريين.

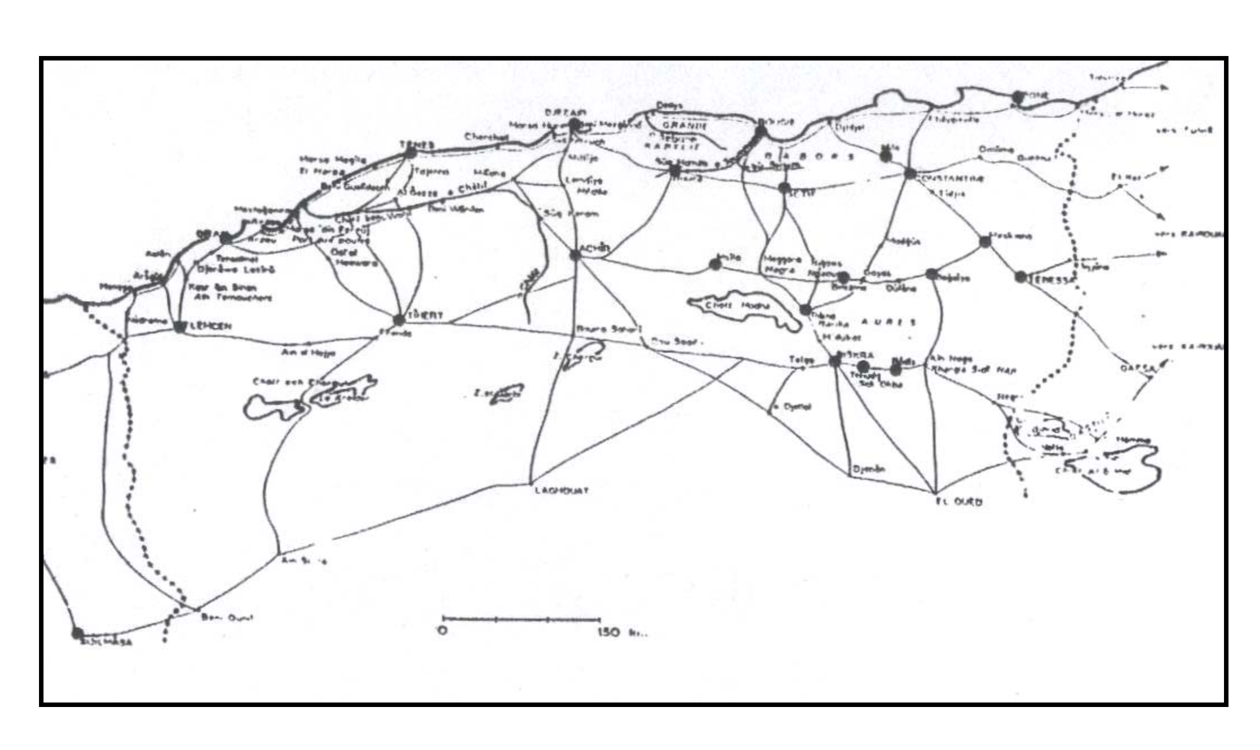
تأسست مدينة تيهرت* في موضع غني بالمياه، مما جعلها تقوم بنشاط اقتصادي ثاني إلى جانب التجارة وهي الزراعة وتربية الحيوانات وخاصة تربية المواشي، واستطاع سكانها أن يجمعوا بين الفلاحة والتجارة، ويذهب بعض الباحثين أن ظاهرة الاستقرار النسبي الذي عرفه المغرب الإسلامي خلال القرن 3هـ/ 9 م كان له تأثير مباشر في ازدهار الحياة الاقتصادية بتيهرت وضواحيها، وأن أهمية تربية المواشي وزراعة الحبوب في الميدان الزراعي تقيم الدليل على انعدام التخصص في الزراعة في أكثر مناطق المغرب الأوسط بل قل في المغرب كله([1]).

لقد عملت تيهرت بسياسة أئمتها وبازدهارها الاقتصادي وبمرافقها العامة من حمامات وخانات، إلى غير ذلك من العوامل على تنشيط الحركة التجارية في جميع الاتجاهات بما فيها سجلماسة، وساعد وجود نظام الصرافة على ازدياد دور تجارة الأجانب في العلاقات التجارية ([2]).

* Kaddache Mahfoud, L'Algérie Médiévale, S N E D, Alger, 1982, p 30.

[1] Vanacker (C).:Geographie Economique de l'Afrique du nord selon les auteurs arabes du 9siecles au 12 siecles,Annales esc,Mai,Juin1973, p674

[2] جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية..، ص229-230.



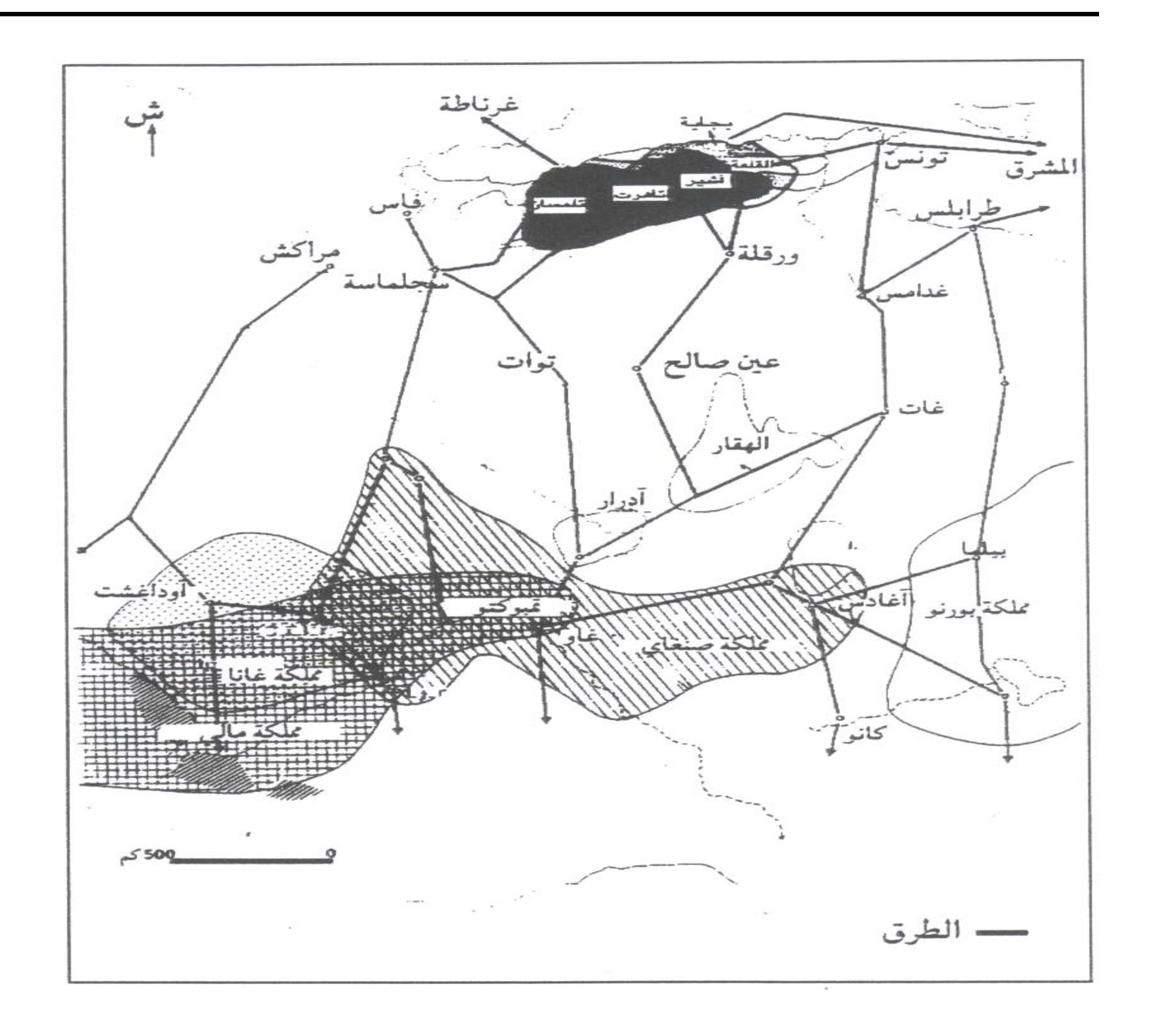
شكل رقم (10): المسالك وأهمّ المدن في القرن 10م- نقلا عن د. بويحياوي

لقد ساهم الخوارج بدور فعال في النشاط التجاري بين بـلاد السـودان وواحات الصحراء من جهة وبلاد المغرب الأوسط من جهة ثانية، وقد ربطـوه بالمشرق الإسلامي وبموانئ البحر المتوسط، وقد اكسب دول الخوارج القائمـة على عصبية قبلية بربرية قوة ومكانة بارزة في المغـرب الإسـلامي، وتكـاد تنحصر بضاعة هذا النشاط في نوعين من بضائع العصر والتي سبق ذكرها آنفا والمتمثلة في الذهب والعبيد([1]).

1 Lombard (M). L'Islam dans sa premiere Grandeur 8-11siecle, paris,1971, p 61

وفي هذا الموضوع ذكر ابن الصغير عن نشاط تيهرت التجاري بقوله:"...**واستعملت السبل إلى بلاد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة فأقاموا على ذلك سنتين وأقل من ذلك وأكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون..**".

يتضح من نص ابن الصغير أن تيهرت كانت لها علاقات تجارية ببلاد السودان عبر المسالك الصحراوية، لأن إمارة بني رستم كانت تتحكم في أجزاء من صحراء المغرب الأوسط، وبالتالي فالمسلك التجاري الصحراوي كان تابعا لإمارة بني رستم، كما يستخلص من هذا النص أن الطرق التجارية كلها كانت تؤدي إلى عاصمة بني رستم سواء من المشرق الإسلامي أو من مدن المغرب الإسلامي الأخرى، وأن تيهرت كانت تتميز بحركة تجارية نشيطة بحكم موقعها الجغرافي والتجاري الذي يربط بين القيروان ومدن المغرب الأقصى وبلاد السودان.



شكل رقم (11): مسالك المغرب الأوسط نحو الجنوب والجنوب الغربي.

(نقلا عن محمد حوتية)

لقد أفرزت الحركة التجارية بفعل القوافل التجارية التـي كانـت تـربط شمال إفريقيا بجنوبها وغربها إلى تأسيس العمارة، ومن أهم الصادرات تيهرت في النشاط التجاري مثل بلاد السودان الحبوب والصوف والجلود.

أما مدينة سجلماسة فهي مدينة تجارية يعود الفضل في ازدهارها وتقدمها المعماري، ومظاهر الترف في حياتها الاجتماعية وهجرة النـاس إليهـا مـن البصرة على شط العرب إلى الأندلس وبلاد السودان إلى نشـاطها التجـاري، ومركزها الحساس في مفترق المسالك التجارية الهامـة فـي تـاريخ التجـارة المغربية في العصر الوسيط، بل كانت مركزا تجاريا عالميا آنذاك، فالتجـارة

هي مصدر الثروة الكبيرة التي تجمعت بالمدينة. وعلى وجه الخصوص الثـروة الذهبية التي كانت بأيدي سكانها وخاصة فئات التجار بينهم، ويقول عنهم ياقوت الحموي:"..وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريـق غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها..."(**1**).

وأشار البكري إلى "...**أن الذزاب عند سكان سجلماسة جزاف عدد بـلا وزن والكراث يتبايعونها وزنا لا عددا**..."([2]).ويروي ابن حوقل قصة طريفـة عاشها بمدينة أودغست تصور مدى الثراء الذي بلغته فئة التجـار بسجلماسـة، فبعد أن تحدث عن سكانها من تجار البصرة والكوفة وبغـداد، وعـن الحركـة التجارية الدؤوبة بها قال عن أهل سجلماسة:"...**وسائر أرباب المدن دونهم فـي اليسار وسعة الحال وتتقارب بالعصبية أوصافهم وتتشاكل أحـوالهم ولقـد رأيت بأودغست صكا فيها ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وزاو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار وما رأيت ولا سمعت بالمشـرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا ولقـد حكيتهـا بـالعراق وفـارس وخراسـان فاستطرفت**..."([3]).

ولقد كانت التجارة مصدر القوة المالية، وبالتالي مصدر القوة السياسـية والعسكرية إمارة بني مدرار الصفرية، ويلاحظ أن مبلغ المكوس الـذي وظفـه أميرها المعتز على القوافل الصادرة والواردة، وعلى ما يباع بها ويشترى يصل مع العشر والخراج أربعمائة ألف دينار، وهذا المبلغ جبايـة المدينـة وعملهـا فحسب، وأصبحت مهنة خفارة القوافل التجارية من سجلماسة نحو فاس وأغمات والسوس ثم نحو الجنوب في اتجاه أودغست وغانا عملا يـدر علـى القبائـل

[1] ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص192

[2] البكري، المصدر السابق، ص151

[3] ابن حوقل، المصدر السابق، ص96

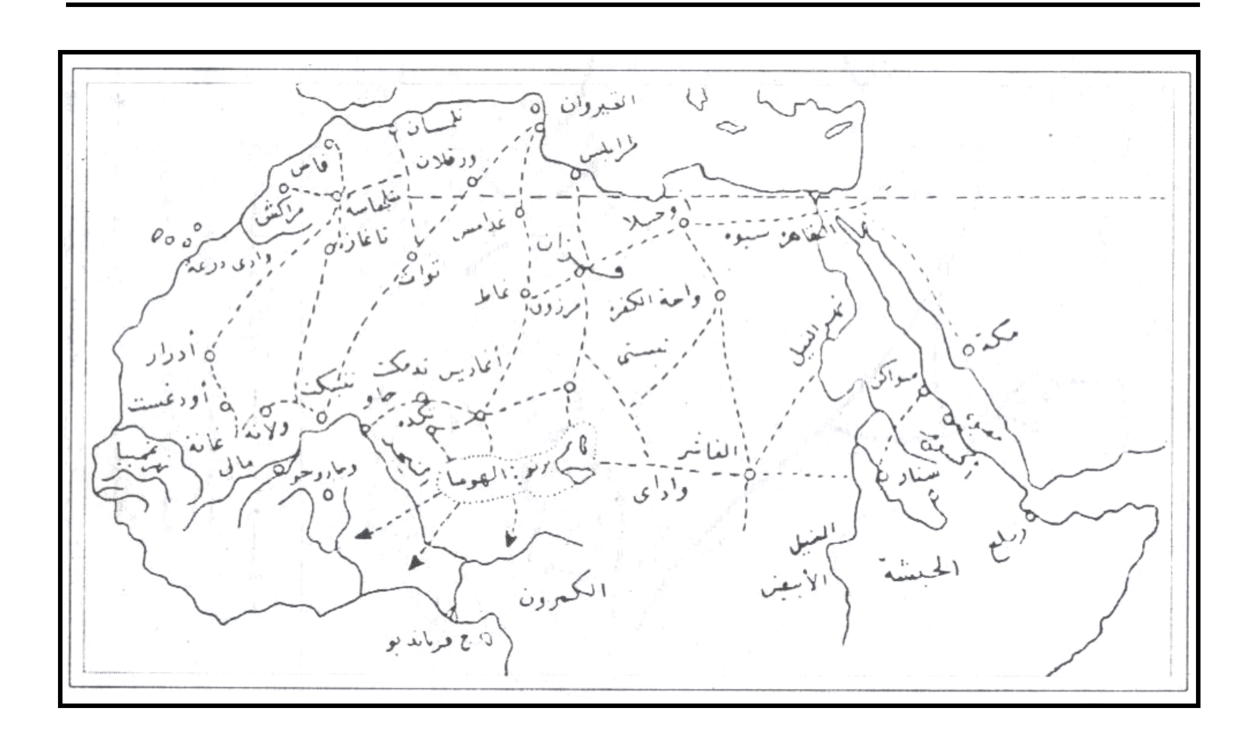
البربرية المقيمة بالقرب من المسالك التجارية أرباحا طائلة ،فهم يوظفون عليها ضريبة ويلزمونها بقبول حفارتها([1]).

لم تكن سجلماسة تمثل خاتمة المطاف بالنسبة للقوافل، فهي تتجه إليها باعتبارها مركزا تجاريا نشطا مع بلاد السودان، فهي باب لمعدن التبر أو ميناء صحراوي تتجمع فيه البضاعتان الثمينتان من بضائع العصر الذهب والرقيق.

إن جميع القوافل التجارية القادمة من المراكز التجارية المذكورة والمتجهة نحو بلاد السودان أو العائدة منها تمر بسجلماسة. وذكر ابن حوقل المسالك الصحراوي في اتجاه الجنوب من سجلماسة نحو بلاد السودان بقوله:"**وبين المغرب وبلاد السودان مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي لا تسلك إلا في الشتاء وسالكها في حينها متصل السفر دائم الورود والصدر وزاو طريق تجارة الذراب مع أودغست وغانة بالخصوص** "([2]).

[1] ابن حوقل، المصدر السابق، ص96

[2] نفسه، ص100



شكل رقم (12): طرق القوافل الرئيسية بين بلاد السودان وشمال إفريقيا

نقلا عن: إبراهيم على طرخان.

تجدر الإشارة إلى أن البضائع التي كانت تحملها القوافل التجارية المتجهة إلى سجلماسة أو المنطلقة منها والتي كانت تسوق في بلاد السودان، وحسب ما جاء في كتب الجغرافيين العرب أن صادرات سجلماسة من المتوجات الزراعية ومنتوجات الحرف اليدوية المختلفة كان نحو بلاد السودان، وخاصة نحو مدينة أودغست وغانا وتكرور، ومن هذه المنتوجات القمح وأنواع التمور، والثمار المجففة والزبيب والمنسوجات والنحاس المصنوع والخرز والملح. ويجلب من بلاد السودان الذهب والرقيق والعنبر وأشجار الصمغ من جبل يشرف على مدينة أودغست، ويصمغ بها الديباج، ويصدر هذا الشجر عن طريق سجلماسة على الأندلس (1).

1 البكري، المصدر السابق ، ص158

ويصف الحميري مدينة تكرور بقوله:"...**وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم**..."[1].بينما أشار البكري إلى ثراء أهل أودغست قائلا:"**وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر**"[2].وكان أهل أودغست يتعاملون بالتبر الخالص وليس بالفضة، فالقوافل التجارية القادمة من سجلماسة بأنواع البضائع المذكورة تعود ببضاعتين هامتين هما الذهب والرقيق، ويصدر إلى أودغست القمح والثمار والزبيب، كما يتجهز إليها بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمرة والزرقة مجنحة، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة وذهب أودغست أجود من ذهب الأرض وأصحه[3].

وينقل السلاوي نصا عن الشريشي يصور بدقة أهمية نوع التبادل التجاري بين سجلماسة وغانا فيقول:"وقال الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي في شرح المقامات الحريرية من نصه غانة بلد من بلاد السودان، وإليها ينتهي التجار يعني من المغرب والمدخل سجلماسة، ومن سجلماسة إيابا مسيرة شهر ونصف ودون ذلك، وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز إليها من سجلماسة بالأمتعة والأثقال فتباع في غانة بالتبر، فمن سافر إليها بثلاثين جملا، ويرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين واحد لركوبه، وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها، حثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوما لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل، فأثمان

[1] أبو عبد الله محمد بن محمد الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت، 1975، ص134
[2] البكري، نفسه ، ص 168
[3] البكري، مصدر سابق، ص159

أحمال الثلاثين جملا يجتمع فيها من التبر ما يجعل في مزود واحد فيطوون المراحل للخفة"([1]).

يستخلص من نص السلاوي الذي نقله عن الفقيه الأديب أبو العباس أن المسلك التجاري بين سجلماسة وغانة لم يكن سهلا بل كان شاقا، بسبب المفاوز وفي نفس الوقت يستنتج منه أن صادرات سجلماسة إلى بلاد السودان كانت ضخمة من حيث الحجم والكمية أكثر من صادرات بلاد السودان إلى المغرب الإسلامي، بحيث ذكر أبو العباس أن تجار سجلماسة كانوا يسافرون على بلاد السودان بثلاثين حملا، يعودون بثلاثة أحمال. بالإضافة إلى السلع والبضائع التي كانت مدن المغرب الإسلامي تصدرها إلى بلاد السودان، فإن هناك بضاعة لا تقل أهمية في العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان وهي الملح، فكانت هذه البضاعة تمر بسجلماسة وكانت نادرة في بلاد السودان، وكانت مصدرا للربح الوافر والحصول بالمقابل على كميات كبيرة من الذهب، وفي هذا الصدد يقول ابن حوقل:"**وربما بلغ الحمل الملح في دواخل بلاد السودان وأقاصيها ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار**"([2]).

يبدو من نص ابن حوقل أن الملح كسلعة كانت لها أهمية في أسواق بلاد السودان، مثلها مثل الذهب والرقيق في بلاد المغرب منعدمة في بلاد السودان، وكان الطلب عليها كبيرا، مما جعل تجار المغرب الإسلامي يستغلون هذه المادة في استيراد الذهب والرقيق.

---

[1] السلاوي (احمد بن خالد الناصري)، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، ج5، طبعة الدار البيضاء، 1954، ص99

[2] ابن حوقل، المصدر السابق، ص98

كما يستنتج من التبادل التجاري بين بلاد المغرب وبلاد السودان أن هناك تكامل اقتصادي وتجاري بين المنطقتين. بحيث كانت بلاد المغرب الممثلة في مدن عواصم إمارته تمد أسواق بلاد السودان ما تحتاجه من سلع وبضائع، وكانت بلاد السودان تصدر إلى بلاد المغرب ما تحتاجه أسواقه من بضائع خاصة الذهب والرقيق.

لقد انعكس ازدهار التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان على المغرب الإسلامي بحيث ظهر تطورا عمرانيا، فمن المعروف أن المغرب الإسلامي كان يتميز بطابعه العمران البدوي، وكانت هذه السمة الأساسية بلاد المغرب منذ العصور القديمة، وفي العهد الإسلامي أيضا بالرغم ما عرفته من ازدهار عمراني.

علاقة التجارة بتطور المدن:

كانت تجارة المغرب الأوسط مع كافة أنحاء المغرب والعالم الإسلامي وإفريقيا وجنوب الصحراء نشيطة وغزيرة الإنتاج الزراعي والصناعي، وان جزءا من سلعها ومنتجاتها كان معدا للتصدير([1])، فساهمت مدن المغرب الأوسط مساهمة كبيرة في تشجيع هذه التجارة، كونها مراكز إنتاج كبيرة وتجمعات تقطنها أعداد هائلة من المستهلكين سواء أكانوا من الطبقة المتوسطة التي كان عددها بكثرة أو من طبقة الأثرياء، وقد اشتهرت هذه المدن بكثرة حرافييها الحذاق الذين ساهموا مساهمة فعالة في تثمين المواد الخام التي كان إنتاجها في الريف وفيرا.

كما أن النصوص الجغرافية تبرز خاصية مهمة في النسيج العمراني الذي يتميز به المغرب الأوسط كونه متكون في غالبيته من مدن صغيرة ومتوسطة، تعتمد في سد احتياجات سكانها على المناطق الريفية، ولعل هذه المدن كانت مراكز تجارية هامة تربطها العديد من المسالك بأقطار إفريقيا عامة وبلاد السودان خاصة، ولم تظهر في المغرب الأوسط في ذلك الحين دول مركزية قوية فلا الدولة الرستمية ولا الأغلبية ولا الإدريسية([2]) ولا حتى الحمادية اتسمت بالقوة والاتساع، وإنما في اغلبها دول متوسطة أسست مدنا متوسطة أهمها طبنة المسيلة، تيهرت، قلعة بني حماد، بجاية وتلمسان حكمت المغرب الأوسط آنذاك كما سبق أن ذكرنا دولا كثيرة تعددت عواصمها

[1] Lewcki (T), Quelques extraits inédits Relatifs aux Voyages des Commerçants et des Missionnaires ibadites Nord Africains au pays du soudan occidental et central au moyen age, Folia Orientalia, p7.

[2] Marçais (G), la Bérbérie aux x siècle d'après el ya'qubi, recueil d'articles art musulman et histoire maghrébine, Alger, 1956

وتمركزت الحياة السياسية والاقتصادية حول هذه الحواضر، فأغلبية هذه المدن صورت كمراحل هامة أو ثانوية تخدم الطرق العابرة للمغرب([1]).

تبدو أهمية المدن التجارية في المغرب الأوسط والتي شهدت تطورا عمرانيا واقتصاديا ذا شأن خلال القرنين 3- 4 هـ/ 9 – 10 م، إلا في إطار نظرة شاملة لتطور المدن، وليس في نطاق نظرة ضيقة أي النظرة إلى المدينة باعتبارها وحدة مستقلة.

إن تأسيس كثير من المدن التجارية خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة أثر تأثيرا مباشرا في عدد من مناطق العمران البدوي، وساهم خلال أجيال عديدة في انتقال فئات اجتماعية من مرحلة العمران البدوي إلى مرحلة العمران الحضري، وهذا التطور التاريخي هو الذي انطلق منه ابن خلدون فيما ذهب إليه من أن البدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما،حيث قال:"**ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة**"([2]).

فالغرض من ذكر نص ابن خلدون هو إبراز دور التجارة في تطور المدن بالمغرب الإسلامي، بل أكثر من هذا فقد ازداد عددها، وتطورت بعض القرى إلى مدن، ولعل الفضل يعود إلى تجارة الذهب والرقيق التي كانت تجلب من بلاد السودان.

[1] **Marçais,** Ipid, 52

[2] ابن خلدون، كتاب العبر، ج2 ، ص583

إن الفترة التي عرف خلالها المغرب الإسلامي مراكز عمرانية متطورة نشطة تربط بينها شبكة مسالك تجارية تتصل بدورها بشبكة مسالك التجارة العالمية، ولكن عندما تدهورت هذه المراكز، وتضاءل الإنتاج وضعف توزيع العمل، أدى كل ذلك في النهاية إلى انهيار ديمغرافي بدأ بانهيار المدن عمرانيا واقتصاديا. وعندما أصبح ذهب السودان يفد قليلا عبر بعض المسالك القديمة، تحولت بعض المدن المغربية إلى مجرد مراكز للعبور دون أن تستفيد من تجارة العبور.

إن تطبيق هذه النظرة الجديدة لتاريخ المدن وتطورها يقتضي اعتبار مظهرين أساسيين:

- المظهر الأول يتجلى في ذلك التطور العمراني والديمغرافي الذي شهده العالم الإسلامي عامة والمغرب الإسلامي خاصة، ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري وخاصة خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، ويتصل بهذا لتطور بروز شبكة من المسالك بعضها قديم وبعضها جديد، ولكنه اكتسب أهمية جديدة خلال عهد الازدهار العمراني في العالم الإسلامي.

- أما المظهر الثاني فيتمثل في ارتباط التطور العمراني وما يتصل به من قضايا متعددة بديناميكية اقتصادية في منطقة جغرافية واسعة وهامة، كانت تشكل في تلك الفترة قلب مراكز التجارة العالمية ومسالكها، وقد أحدثت هذه الديناميكية حاجات اقتصادية جديدة اكتسبت بينها بضاعتان أساسيتان هما الذهب وتجارة الرقيق([1]).

[1] الجنماني الحبيب، المرجع السابق، ص15

لقد ارتبط تطور التجارة وتوطدت العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي بانتشار الإسلام، ولاسيما في المناطق الصحراوية من المغرب الإسلامي وبصورة خاصة في جنوب الصحراء إثر التطور الكبير والسريع الذي شهدته التجارة الصحراوية ابتداء من القرن الثالث الهجري وهي تعتمد أساسا على البضاعتين الأساسيتين في التجارة العالمية آنذاك وهي الذهب وتجارة الرقيق، فقد ظهرت تجمعات سكانية في مختلف مراكز التجارة المؤسسة على طول المسالك التي كانت تربط بين الصحراء جنوبا وموانئ البحر المتوسط شمالا من جهة، وبين الصحراء والمشرق الإسلامي من جهة ثانية، وقد كانت فئة التجار المسلمين أنشط عناصر سكان تلك المراكز التجارية، ليس في النشاط التجاري فحسب بل في نشر الإسلام.

كما سمح الموقع الجغرافي للمغرب الإسلامي بتفتح تجاري وحضاري كبيرين، فمن المعروف أن الحوض الغربي من البحر المتوسط يتصل بأوسع منطقة جغرافية تشرف على الصحراء فبعد الواجهة البحرية، توجد الهضاب الفاصلة بين الساحل والصحراء، وكان لهذا الموقع أثر بالغ في تطور المسالك التجارية وتنوعها جنوبا شمالا وغربا شرقا، وكذلك في ازدهار تجارة الذهب والرقيق في بلاد المغرب، وقد أثر العامل الجغرافي تأثيرا واضحا في مساهمة المغرب الإسلامي في التجارة العالمية، وفي علاقاته الحضارية مع منطقة البحر المتوسط.

إن مدن المغرب الإسلامي في الواقع كانت مخازن لبضائع بلاد السودان لإعادة توزيعها في اتجاه صقلية والمشرق الإسلامي من شواطئ إفريقية أو في

اتجاه الأندلس وأوروبا من سواحل مضيق جبل طارق. وكانت السلعة الهامة هي بطبيعة الحال ذهب بلاد السودان([1]).

إن تأثير ذهب السودان قد تجاوز في الواقع التطور العمراني للمدن المغربية خلال أربعة قرون 2_5هـ/8م_11م، ليؤدي دورا حاسما في نهضة غرب أوروبا وجنوبها فيما بعد. وإذا كان العالم الإسلامي أصبح يشكل وحدة عمرانية واقتصادية خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، فإن طرق المواصلات التجارية وشبكة المسالك التجارية فيه تمتد من الجنوبي الغربي من بلاد السودان إلى أوروبا، ومن سواحل إفريقية الشرقية إلى الصين وبلاد الترك،وتمتد كذلك من المغرب إلى المشرق من شواطئ المحيط الأطلسي إلى بغداد وكابول،ومنهما إلى منطقة المحيط الهندي([2]).

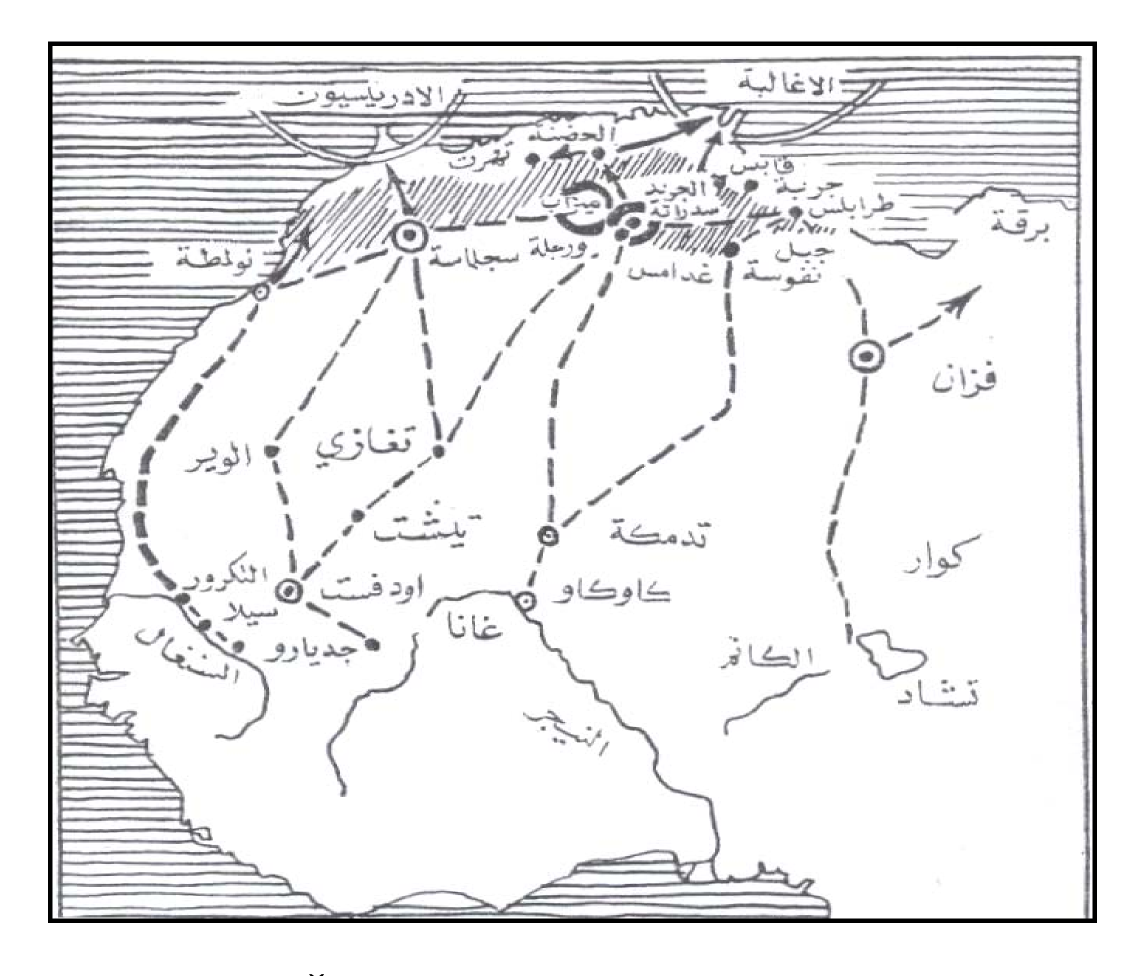
كان المغرب الإسلامي يضم ثلاث مناطق تجارية أساسية وهامة: وهي منطقة إفريقية ومن أبرز مراكزها التجارية القيروان، والمنطقة الثانية وتتصل المسالك التجارية فيها بمدينة تيهرت عاصمة الإمارة الرستمية، وهي مركز تجاري حساس يربط بين مسالك الصحراء وبلاد السودان بالأندلس، وجزر البحر المتوسط عن طريق ميناء تنس وحلقة وصل هامة في التبادل التجاري بين المغرب والمشرق الإسلامي، أما المنطقة الثالثة وهي منطقة المغرب الأقصى بواجهتيها البحريتين: واجهة المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات كما

[1] وكانت المدن المغربية وقد أصبحت مراكز استهلاك ذات شأن نتيجة تطورها العمراني،تستورد مقابل الذهب بالخصوص فرو الغابات الروسية والسلاح المصنوع في أوروبا وكذلك الخشب لاستخدامه في صناعة السفن بصفة خاصة والقصدير وتجارة الرقيق الصقلبي، ومن المعروف أن عدد الصقالبة قد كثر في قصور المغرب خلال القرنين الثالث والرابع، وأصبح ذهب السودان يحمل معه الأسى إلى كثير من مناطق أوروبا الشرقية بصورة خاصة. انظر إلى:
Maurice Lombard, L'Islam dans sa premiere grandeur8-11siecle,paris,1971,p155

[2] الجنماني الحبيب، المرجع السابق، ص18

يسميه الجغرافيون العرب القدماء، وواجهة البحر المتوسط ويجمع بين هذه المناطق الثلاثة الموقع الجغرافي الذي ينحصر بين واجهتين تجاريتين:الواجهة البحرية والواجهة الصحراوية، وهما واجهتان تقعان ضمن الوحدة العمرانية والاقتصادية للعالم الإسلامي.

وقد اتضحت معالم الخريطة السياسية لبلاد المغرب والأندلس ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري، فقد أسس الأمويون خلافتهم الجديدة في قرطبة، وأسس بنو مدرار المكناسيون عاصمة إمارتهم الصفرية في سجلماسة، والأدراسة أسسوا دولتهم في فاس، وبعدهم بقليل بنو رستم عاصمة إمامتهم الإباضية في تيهرت، وبعد أن تأسست هذه الإمارات المغربية والتي لم تتبع سياسة توسعية لبسط نفوذها السياسي والمذهبي، عرف المغرب الإسلامي فترة استقرار سياسي امتد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وقد ساهم هذا الاستقرار في تطور المسالك التجارية وأمنها، ويبدو للوهلة الأولى أن هناك تناقضا بين بروز هذه النظم السياسية المختلفة وبين التطور العمراني والازدهار الاقتصادي، بل حاولت هذه النظم السياسية أن تحقق الأمن للمراكز التجارية وتستغلها اقتصاديا وذلك لتدعيم مركزها السياسي والتجاري، ولعل الأمر يعود إلى اكتفاء دول المغرب بموارد المسالك التجارية الموجودة داخل نطاق منطقتها الجغرافية ودون محاولة توسيع مجالها على حساب منطقة الدول المجاورة، ويتضح أن للاستقرار السياسي الذي شهده المغرب الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري دورا فعالا في النشاط التجاري، وبالتالي الازدهار العمراني، ولكن يمكن مخالفة الاتجاه الذي يقتصر على هذا الجانب من القضية لتعليل ذلك الازدهار.



شكل رقم (13): توغل تجارة الإباضيين نحو بلاد السودان.

(نقلا عن: لومبار)

الفصـــل الرابـــع

مدينة وارجلان
- دراسة نموذجية -

تاريخ تأسيس مدينة وارجلان:

تعد مدينة وارجلان من أهم المراكز التجارية بحكم موقعها الاستراتيجي المشرف على ملتقى طرق القوافل التجارية الصحراوية، فكانت حلقة وصل بين العواصم الإسلامية بشمال إفريقيا والعواصم السودانية بالسودان الغربي والأوسط، وقد واصلت وارجلان النشاط التجاري بعد سقوط الدولة الرستمية وانتقل إليها نشاط تيهرت التجاري فتوسعت أعمالها ويؤكد هذا النشاط التجاري المنتظم ما جاء عن وارجلان من القرن 4 - 7 هـ/ 10- 13 م، بخصوص حصونها المنيعة.

تضاربت الأقوال حول زمن تأسيس مدينة وراجلان، غير أن بعض الباحثين يثبتون تواجد الإنسان في هذه المنطقة منذ أمد بعيد من خلال بعض الشواهد والبقايا الأثرية التي تعود إلى العصر الحجري الحديث "([1]).

أما في الفترة القديمة فإننا لا نجد إشارة إلى اسم وارجلان عند المؤرخين الإغريق والرومان، فربما كانت تعرف عندهم تحت اسم آخر في حين بعض الباحثين الأوروبيين يعتقدون أن الشعوب التي بنت قصر ورقلة هم القرامنت، الذين كتب عنهم كل من هيرودوت و سترابون وانتشارهم كان من الشمال إلى الجنوب من الساحل الرملي "([2]).

ونجد أن جميع المصادر التاريخية التي تتكلم عن المدينة في القديم والوسيط يقصد بها المؤرخون في كتاباتهم القصر على أساس بقية التجمعات

---

[1] Madeleine(R,B) Le Pays de ouragla, sahara algerien, département de geographie de l'universite de paris, serbonne, paris, 1975, p 09.

[2] Balont (L) , Aperçu sur l'evolution du paysage quaternaire et de peuplement de la region de ourgla, Libyca, tome 20, crape, 1972, p 235.

والأحياء الأخرى لم تعرف الاستقرار والعمران إلا منذ ثلاثة قرون كحد أقصى، فالقصر يعد مجمعا عمرانيا يعكس طبيعة الفن المعماري الصحراوي، وصورة مصغرة للمدينة الإسلامية.

جاء في كتاب " **ليتيو Lethielleux** " تفسيرا لاسم وارجلان يقول فيه " ورقلة مدينة بربرية واسمها الأصلي وارجلان، فالكلمة الأولى " **وار**" وتعني عند البربر أولاد أو أبناء وتأتي في بداية الاسم مثل وار فجومة ووار انشريس، مأخوذة من كلمة "**ارو**" و"**ارا**" وتعني النفاس أو الوضع، أما الكلمة الثانية **كلان** مفردها آكلي وتعني الأسود وعند الجمع السود أو الزنوج"([1]).

ويصفها حسن الوزان، أنها مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا، وأنها مدينة بربرية استولى عليها الرومان لفترة قصيرة، ويقول " وركلة مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا ، لها صور من الآجر النيء ودور جميلة وحولها نخل كثير ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى ، الصناع فيها كثيرون وسكانها أغنياء جدا ، لأنهم في اتصال مع مملكة إكدز ، منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد لاسيما قسنطينة وتونس يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان . الشحم واللحم نادران جدا ، وتأكل الجمال والنعام ، وأغلب الناس سود ... وأهل وركلة كرماء ظرفاء يستقبلون الغرباء استقبالا حسنا..."([2])، ويرى ليتيو (**Lethielleux**) أنها شيـ ـدت سنـ ـة 108 هـ /

[1] Lethielleux (J), Ouargla, cite saharienne, librairie orun Taliste Paul Genthier, paris, 1983, p 19.

[2] الوزان حسن، وصف إفريقيا، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983، ص 508

726 م([1])، أما دوفيريي(**Duverier**) يرى أنها من أقدم المدن الصحراوية ولم يحدد تاريخا دقيقا لتأسيسها([2]).

وذكر ابن خلدون أن مدينة وارجلان ببوابة الصحراء، ولم يحدد لنشاتها تاريخا، ويرى أن بني وركلا بطن من بطون زناتة كانت مواطنهم قبلة الزاب واختطوا وارجلان على ثماني مراحل من بسكرة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب، بنوها قصورا متقاربة ثم استبحر عمرانها فصارت مصر([3]).

وكانت بني وارجلان محط رحال الاباضية في أوائل القرن 4 هـ/ 10 م أي سنة 296 هـ/ 908 م، بعد سقوط الدولة الرستمية على يد الشيعة الفاطمية، وأسسوا بها قرى كثيرة أهمها سدراته، ولكن بعد الاضطرابات التي عرفتها المنطقة نزحوا إلى بلاد ميزاب. سقطت سنة 959 هـ/ 1552 م تحت حكم السلطة العثمانية بعد أن ضمها بالقوة صالح رايس، وادخلها ضمن المملكة الجزائرية وهو ما يسمى مدينة ورقلة الحديثة([4]).

ويذكر عبد الرحمن الجيلالي نقلا عن أبي يعقوب يوسف الورجلاني من كتابه الدليل: " ...**فهي بلاد الكورة أو الصقع (واركلا) التي سكنها اللاجئون من تيهرت مدنا وقرى وقصورا ومنها المدينة (الكريمة) لا وجود لها اليوم ومدينة (سدراتة) عاصمتهم الجديدة ذات الحضارة العظيمة التي قضى عليها يحي بن إسحاق الميورقي (622هـ/ 1229م) ...وعندما نزل عنها نقلها**

[1] Lethielleux, Op cit, p 20
[2] Ibid, p 35
[3] ابن خلدون، كتاب العبر، مج 7، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1981، ص 107
[4] المدني احمد توفيق، كتاب الجزائر، م و ك، الجزائر، 1984، ص 245

بسبب حملة الميورقي وسكنوا أريغ الشبكة من بلاد بني ميزاب حل محلهم كثير من الزنوج ونشأت بتلك الواحات مملكة زنجية "(1)

التخطيط العام للمدينة

فرضت البيئة الصحراوية بمناخها الصحراوي وقسوة طبيعتها على الجانب العمراني، بالإضافة إلى تأثير العقيدة الإسلامية التي تركت بصمتها على المباني، والأسوار وارتفاعها أو انخفاضها، وعلى اتجاه الشوارع طولا وعرضا. حيث التزم علماء المنطقة وعامتها بالأعراف التي تعارفوا عليها والمنبثقة من الشريعة الإسلامية.

لقد كان لتأثير الطرق التجارية واضحا على مدينة وارجلان حيث تشكلت تجمعاتها السكانية من الوافدين إليها، وهذا وصف لما قدمه مولاي بلحميسي عن نص أجنبي سنة 1862، إذ يقول فيه:" **تعرف المدينة بأسوارها الواسعة المستديرة التي تبنى داخلها رغم الأنقاض أحيائها الثلاثة الجلية التي تتألف منها، وكل حي منها يدعى باسم البطن الذي يسكنه، وهذه البطون هي بنو سيسين، بنو واجين وبنو ابراهيم، وتتألف من كل واحد من هذه الأحياء مدينة داخل المدينة وتنفصل عن الأحياء الأخرى بأسوار وأبواب** "(2)

وينقل أيضا عن العياشي مايلي: " **فدخلنا وارقلا قبل غروب الشمس ونزلنا بباب المدينة المسمى بباب السلطان، وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولنا دخول قافلة من أعراب – الأرباع- قدمت بسمن كثير وإبل**

1 الجيلالي عبد الرحمن، أبو يعقوب يوسف الورجلاني وكتابه الدليل والبرهان، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977، ص 164.

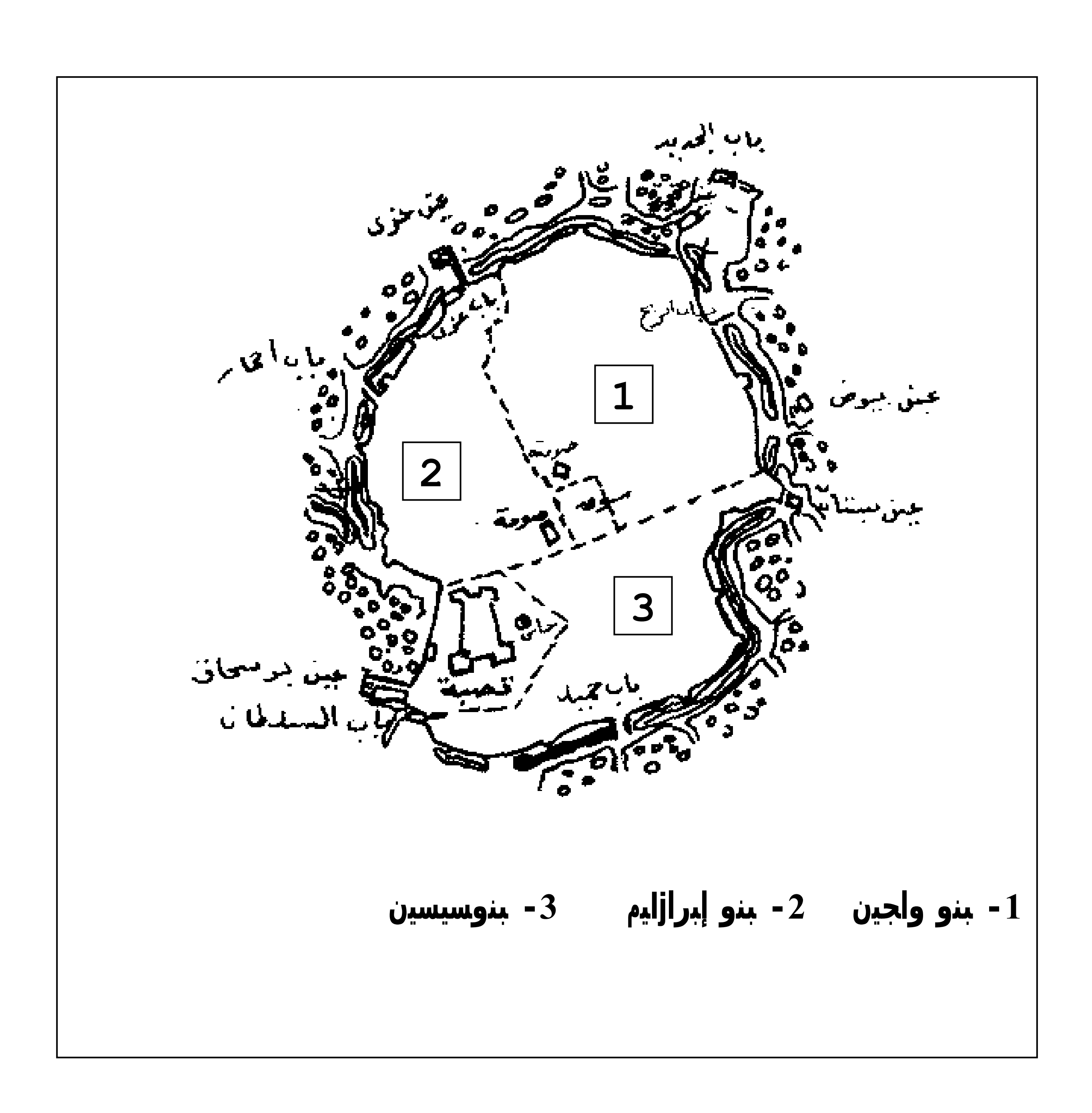
2 مولاي بلحميسي، ورقلة من خلال النصوص الأجنبية، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977، ص 208

وزرŎ اشترnj الناƧ منهم ما احتاجوا إليزا بأرخ ţ ثمنÛ وقدمت ŕخرnj بعدزاا بيوم تحمل مثل ذاp ŕو ŕكثرÛ فتنعم الناƧ من اللحم والتمر والسمنÛ حتى كانت تاp الليالي الثلاث التي ŕقاموزاا ليالي منى من كثرة اللحم... "([1])

وأما عن وصف المدينة فيذكر:" **ثم بعد الصلاة طلعنا للمئذنة وزاي مشرفة على المدينة كلهاÛ فنظرنا إلى ŕطرافها ووسطها وكنا نستقلها قبل ذاp فأذا زاي مدينة لها سبعة ŕبوابÛ وزاي في وسط خط من النخل ومساحة المدينة بالتخمين نحو من نصف فرسخ في مثلزاا محيط بها خندق مملوb ماb من كل جهاتها Û يصل احد إلى سورزاا إÛ من ناحية الأبواب "**([2])

1 مولاي بلحميسي، مدينة ورقلة في رحلة العياشي، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977، ص 62.

2 نفسه، ص 63.



شكل رقم (14): مخطط المدينة سنة 1880

عن (Vuillot, l’Exploration du Sahara) بتصرف

- المساجد:

يعتبر المسجد والمرافق المكونة لروح المجتمع الإسلامي النواة المحورية الذي تتكون منه المدينة الإسلامية، فالجامع يمثل نواة المدينة الإسلامية فيه يلتقي المسلمون في صلواتهم ولذلك اقتربت المنازل منه، خاصة وأن الإسلام يدعو إلى تقارب المسلمين، فالمركزية تسهل الوصول إليه نظرا لتقارب المسافة من جميع الأماكن المحيطة به([1]). وهذا ما أشار إليه ابن الربيع عندما عرض شروط تخطيط الموضع وهو أن يبنى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليتعرف على جميع أهلها([2]).

كان المسجد يؤدي وظائف مختلفة في المدينة فهو أولا وقبل كل شيء مكان للصلاة والعبادة، ويعد مركزا ثقافيا وتعليميا وكان أيضا مقرا للتقاضي والشورى في أمور المسلمين ومصالحهم.

يولي الاباضية مثل سائر المسلمين كل الأهمية للمساجد فهي بالنسبة إليهم مركز الإشعاع الديني، فالمسجد هو المكان الذي تقام فيه الشعائر الدينية كما انه مركز قيادة المجتمع، خاصة بعد تحول النظام السياسي عندهم من إمامة الظهور الى إمامة الكتمان أي ما يسمى بالإمامة الصغرى، حيث صار المسجد مكان اجتماع العلماء ورجال الفكر وشيوخ القبائل.

ففي قرى ميزاب نجد المسجد بصومعته العالية يشرف من المرتفع على المساكن، أما بالنسبة لوارجلان المنبسطة فأكبرها يتوسط المدينة والمساجد الصغرى تتوزع على الأحياء، ولهذه المواقع أهميتها أولا من الناحية المعنوية

[1] خالد محمد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة، العدد 58، قطر، 1418هـ، ص78

[2] عثمان عبد الستار، المدينة الإسلامية، ط.1، دار الأفاق العربية، القاهرة، 1999، ص113

هو الشموخ والعلو والإشراف، أما الثانية منها ما يتعلق بالناحية الطبيعية وهو إمكانية رؤية الفجر وغروب الشمس للمؤذن، وانتشار الصوت حتى يتم سماع صوت الآذان إلى الأماكن البعيدة عن المسجد، كما أن توسط وتمركز المساجد للبلدة يساهم أيضا في تقريب المسافات وتوزيعها بالسوية تقريبا حتى ييسر ارتيادها وعمارتها.

إن الميزة الأساسية لدى مساجد الاباضية البساطة وعدم التعقيد، بسيطة في التصميم والبناء فهي تخلوا من الزخارف الفسيفسائية أو الرخامية، وذلك اقتداء بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم حينما بنى مسجده، فهذه الطريقة تجعل المصلين يخشعون أثناء تأديتهم صلاة الجماعة في المسجد.

هذه البساطة جعلت الوارجلانيين يفكرون في أشياء ابسط بكثير من المساجد الواقية من الريح والمطر ووهج الشمس، فصاروا يقصدون الغيران للتعبد وسطوح الجبال لإحياء الليالي في ملكوت الله حتى سمي الجبل المشرف على سدراته ووارجلان بجبل العباد إلى يومنا هذا .

تزخر مدينة وارجلان بكثرة المساجد وأماكن العبادة ويعتبر مسجد الشيخ حادور من أقدم مساجد في تلك المنطقة وحسب ما تذكره الروايات أن الشيخ حادور أتى من زنجبار سنة 108 هـ / 726 م وهي السنة التي توافق تشييد مدينة وارجلان.

ومن المساجد التي لا تزال متينة البنيان إلى حد الآن مسجد الشيخ أبي سهل، الذي عاش في القرن 5هـ / 11 م، ولا يزال مسجده إلى يومنا هذا خلف داره وهو مسجد صغير وسقفه متدني، وعرصاته متقاربة وبناؤه بسيط وغير متناسق يدل على العفوية في البناء ويبعث على الرهبة والخشوع ويفصله عن منزله صحن صغير يستعمله أهل الدار.

ومن المساجد المندثرة الجامع المالكي العتيق 626 هـ/ 1319 م الذي أسسه أبو زكرياء بن أبي حفص، يعد من اكبر المساجد مساحة ويليه الجامع الاباضي([1])، يحاط به مجموعة من المصليات خالية من مآذنها وقدر عددها سنة 1981 اثنان وعشرون (22) مصلى([2]).

إن اغلب المساجد في هذه المدينة تتميز بعرصات عريضة قد يصل البعض منها إلى ما يقارب المتر المربع، وتتزاحم فوقها الأقواس المتعاكسة في السقوف ، هذه الأخيرة تكاد تخلو من جذوع النخيل وبهذه الطريقة تخلو هذه المساجد من القباب، بل إنها تكاد تنعدم وذلك حتى يستفيدوا من مساحة السطح في ليالي الصيف، مثلما يستفيدون بالصحن أيضا لصلاة التراويح في ليالي رمضان.

أما الجدران المساجد بنيت سميكة وقد تبنى أصولها بالحجارة الصلبة وأما البقية فتبنى بحجر محلي هش، وقد تبنى بحجر الملح بعد تجفيفه، والجدران الملحية أكثر صلابة وتمتاز بعدم إيصال الرطوبة من الأرضية إلى الأعلى.

تفصل المساجد الاباضية بين بيوت الخلاء ومكان الاستنجاء لأنهم يرون أن الاستبراء ضروري بوسائل التطهير الجافة أو الاغتسال ثم بعدها إلى مكان يتميز بالطهارة المطلقة وهو مكان الوضوء، ثم بعد الاطمئنان إلى الطهارة التامة يمكنهم الدخول إلى المحراب لأداء فريضة الصلاة ويستقذرون غسل

---

[1] يذكر ابن خلدون قائلا" لما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك إفريقيا وجال في نواحيها في أتباع ابن غانية مر بهذا القصر فأعجبه، وكلف بالزيادة في تمصيره فاختط مسجده العتيق ومئذنته المرتفعة، وكتب عليه اسمه وتاريخ صنعه نقشا بالحجارة "، انظر: ابن خلدون، كتاب العبر، مج 7، لبنان، 1981، ص 106 وكذلك:
- Marmierb (F), Notes pour servir à l'historique de Ouargla, R-A, N 64, p 385.

[2] Denys (P), Quelques repéres pour l'histoire de Ouargla de 1972, 1889, paris, p 11

النجاسة مباشرة باليد مباشرة بعد قضاء الحاجة، بل يرون انه من السنة الاستبراء فالاستنجاء وهذا ما كان له تأثير على أشكال البناء في المساجد والدور الخاصة.

والميزة الأساسية للمسجد في مدينة وارجلان وفي قرارة ميزاب هي انعدام المنبر، وذلك لأنهم يشترطون في صلاة الجمعة الإمام العادل فبسقوط الإمامة بعد الدولة الرستمية وعدم قيام دولة إسلامية بعدها تطبق الحدود الإسلامية سقط فرض الجمعة وبالتالي انعدم المنبر.

- المنازل:

لقد لجا الإنسان منذ القدم إلى أماكن يأوي إليها اتقاء للقر أو الحر لينعم بالراحة والاستقرار، فتغيرت المساكن حسب تطور الأزمان، فهناك عوامل مختلفة تحدد مخطط المنازل في المدينة الصحراوية، فدور الواحات يغلب عليها الطابع الديني وعامل الطبيعة وهي بسيطة في بنائها في تناسق تام يغلب عليها التراص والتلاصق، وهذه السمة في البناء تكون أحياء مترابطة تسهل مراقبتها والدفاع عنها.

ومن السمات العامة التي ميزت المدن الإسلامية " نمط المنزل"، فالمنزل الإسلامي يتكون عادة من طابق أو طابقين يحيط بهما فناء مركزي وغالبا ما نجد فيه حوض مائي على هيئة بركة، وهذا النمط من المساكن يتلاءم مع الظروف المناخية وطبيعة الحياة للمجتمع الإسلامي، فنجد الرجال يجلسون في حجرات الضيافة بينما النساء يقمن في حجرات خاصة لهذا نجد أن المنزل كان يتكون من طابقين([1]).

تتميز المنازل الصحراوية بالمدخل المنكسر فلا تجد دارا يفتح بابها على بهو أو غرفة، وهذا راجع لسببين الأول ديني لكي لا تنكشف المرأة على الشارع، والثاني استراتيجي بحيث انه لا يمكن لمعتد أن يدخل بالسرعة التي أتى بها وللباب المفتوح عادة جدار يدعمه من الخلف ووسط الجدار كوة قدر ما يصلح لإدخال اليد من خلفه لدفعه قبل الغلق مراعاة للسترة وحرمة المنازل.

[1] ناصف سعيد، المدينة الإسلامية- دراسة في نشأة التحضر، مكتبة زهراء الشرق، جامعة عين شمس، القاهرة، د-ت، ص 62

ويحتوي المنزل على دعامات أساسية قد يصل عددها إلى أربع دعامات يرتكز عليها السقف، ويعود سر تقارب الجدران لبعضها البعض إلى مقاومة الثقل وخشب النخيل لا يحتمل الطول، وبسبب الدعامات التي تتوسط المنزل، هذا الأسلوب يجعل أقسام المنزل متناظرة ومتقابلة وهذا ساعد على التسقيف المقبي المتقاطع الأضلاع أو البرميلي([1]) .

تتميز المنازل الوارجلانية باحتواء الطابق الأرضي على مجلسين، مجلس خلف الباب مباشرة لاستقبال الغرباء عن أهل البيت ليمنع توغلهم إلى الداخل إلا عند الضرورة. وفي الجهة المقابلة من الداخل مجلس ثاني مخصص لأهل البيت حتى لا يسمع كلامهم ولا تنتشر أسرارهم إلى الشارع، ويطلق عليه سكان المنطقة "بالسلام"، وبين المجلسين وسط الدار الذي يوزع النور والهواء لغرف المنزل، ويتخذ صاحب المنزل جناحا يبني فيه دويرة بكامل مرافقها مخصصة للضيوف ولأبنائه حينما يبلغون سن الرشد، ويتزوج من بلغ سن الزواج.

ومن بين بقايا المنازل المكتشفة في سدراته فان تخطيطها يوضح أنها كانت مقسمة إلى ثلاثة اقسام يفصلها رواقان بعقود متجاوزة وهذا الأسلوب يبين أن اقسام المنزل متناضرة ومتماثلة، مما يساعد على التسقيف المقبى المتقاطع الأضلاع أو البرميلي إذا كان ضيقا، إضافة إلى وجود الغرف بكثرة ودعمها بالأعمدة والعقود لدليل على علو الجدران وهذا لغرض الإنارة والضوء والتقليل من المادة البنائية والمظهر الهندسي الذي يضفي الطابع الجمالي للمنزل(**2**).

---

[1] عقاب محمد الطيب، "التراث المعماري في مدينة سدراته التاريخية"، حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد 11، الجزائر، 2002، ص 32

2 نفسه، ص 33 – ص 39.

حسب هذه التصاميم تظهر أن المساكن كانت معقدة بتراكيبها الفوقية وفي نواة الجدران لاستغلال الفراغات العمودية، لكي تشغل المساحات الأرضية المتروكة لحرية التنقل في النهار خاصة في المناسبات الاجتماعية أو أثناء استقبال الضيوف

إن الأثر الديني يتجلى حتى في قصورهم ومنازلهم، وهو ما عبر عنه الغربيون حينما تحدثوا عن الاباضية في هذا المجال، فهم لا يبنون إلا ما هم بحاجة إليه فلا يبنون غرفة أوسع مما صممت له ولا يرفعون من علو الباب أكثر من قامة الإنسان، ولا درجا ارفع من خطواتهم، ولا يجلبون مادة لا توجد فوق سطح أرضهم ولذلك كان الجمال الواقعي.

إذا ما وصفنا شوارع المدينة نجد تميز جدرانها الخارجية بالعلو مما يحقق نسبة معتبرة من الظل بالشوارع، وخلوها من النوافذ الخارجية تقريبا، وان وجدت فإنها تفتح في الجزء العلوي للجدار ويرجع سبب ذلك إلى المبالغة في السترة، وتستمد الغرف ضوء الشمس والهواء من الفناء المركزي المحاط بأروقة (الساباط)([1]).

[1] Hamlaoui (A), Remarques sur l'origine et rôle du sabat dans l'architecture de la région de l'Oued Rig, université d'Alger, n 3, 1995, p 33- 36

- أسوار المدينة:

ومن الشروط التي يجب مراعاتها في تخطيط المدن الإسلامية، هو إحاطة المدينة بسور وله وظيفتين، الأولى تتمثل في حفظ المجتمع الداخلي كاسرة واحدة، وهو ما أشار إليه ابن أبي الربيع" لأنها بجملتها دار واحدة"، والثانية توفير الحماية من غارات العدو الأجنبي([1]) ، وعادة ما كانت تحاط هذه الأسوار بخنادق تملأ بالماء وتستعمل وقت الحاجة، إضافة إلى وجود البوابات الضخمة التي تقفل على الأحياء وازداد انتشارها في فترات اختلال الأمن وتفشي الحروب والصراعات([2]). ففي من الناحية الدفاعية كانت المدينة الإسلامية محصنة بأسوار تتخللها أبراج يستند أحيانا من الخارج على دعامات نصف هرمية الشكل تزيد من متانة الجدار، كما نجد بالسور مداخل رئيسية تغلق عند الضرورة بأبواب خشبية ضخمة تصنع من أشجار النخيل.

لذلك اعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن، فتحصين المدينة ببناء الأسوار والأبراج والقلاع من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والعرض والمال وهذا مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية([3]).

تعد مدينة وارجلان من المدن التي تعرضت للهجومات والغارات إلى حد تهديم المنازل واجتثاث الأشجار والنخيل وتغوير الآبار، وفي هذا الشأن يذكر ابن خلكان حيث قال : " **فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن أقام بنو معقل [illegible] في القفار وتفردوا في البيداء فنموا نموا لا كفاء له وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غربا**

[1] خالد محمد مصطفى عزب، المرجع السابق، ص 79

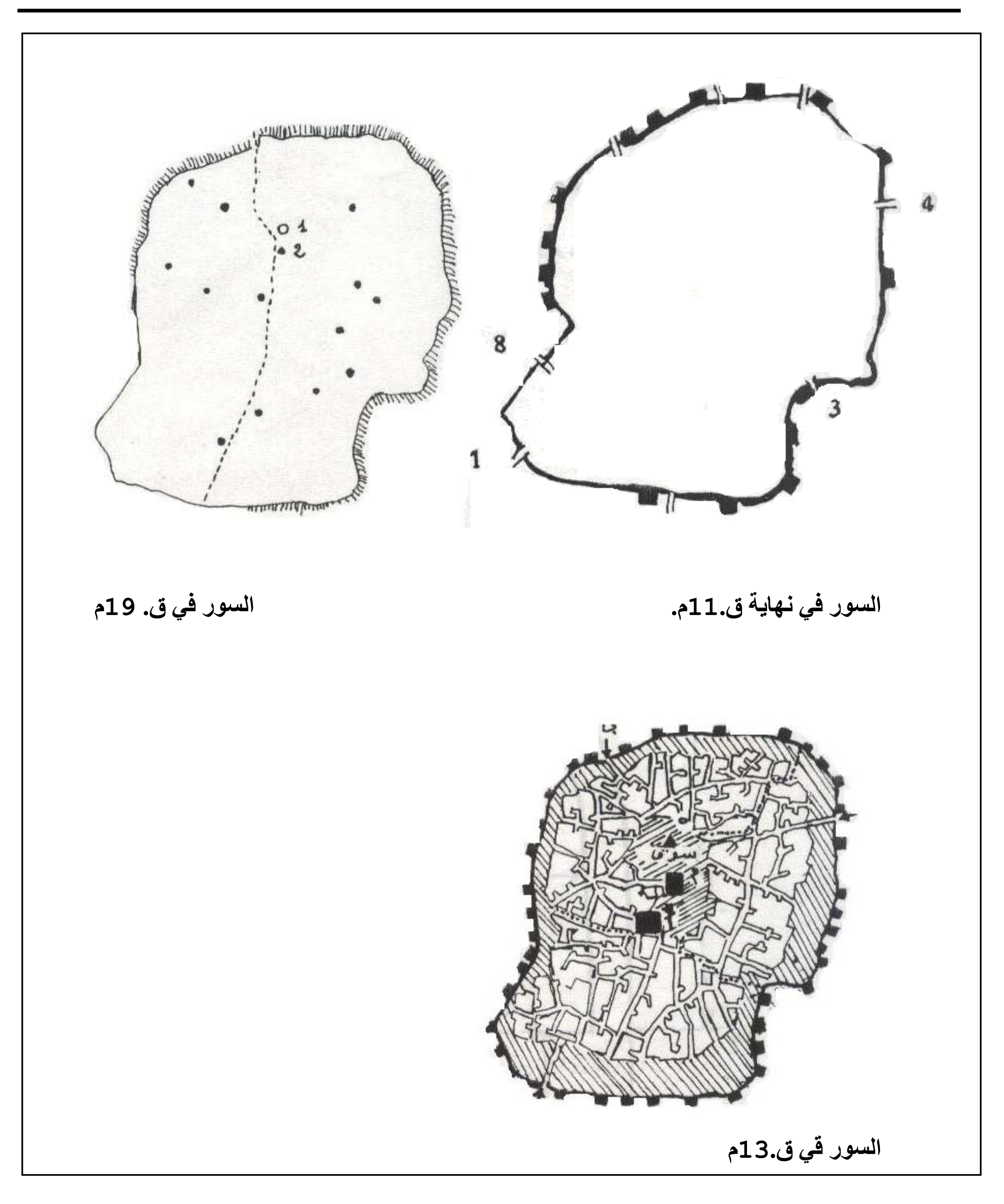
[2] ناصف سعيد، المرجع السابق، ص 65

[3] عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص. 135

ثم توات ثم بودة ثم تمنطيط ثم واركلان ثم تاسبيت ثم تيكرارين شرقا وكل واحدة من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها فحازت عرب معقل هذه الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الإتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا.([1])، فكان ذلك دافعا لسكان أهل المدينة في أن يفكروا في حماية العرض والنفس والمال، فأول ما راعوه في التخطيط هو إمكانية امتداد البناء وحتى لا تبنى الدور خارج الأسوار بعد مدة قصيرة، فتركوا مساحات واسعة بين السور وآخر الديار وأحيانا نجد المقبرة داخل السور بينما في وارجلان نلاحظ أن المقبرة تكون خارج أسوار المدينة.

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج1، دار الثقافة، بيروت، 1968، ص287



السور في ق. 19م

السور في نهاية ق.11م.

السور في ق.13م

شكل رقم (15): سور مدينة وارجلان

(عن **Lethielleux** - بتصرف)

- الأبواب:

يتخلل السور ثمانية أبواب موزعة على كامل جهات المدينة وتكون عادة عند نهاية الشوارع الحيوية وهي: باب أبي الربيع، باب البستان، باب أحميدة، باب أبي إسحاق، باب أبي عمار، باب عزة.[1] بينما تذكر المصادر الاباضية أن عدد الأبواب الأصلية هي ثلاثة أبواب باب لكل حي: باب عمار في حي بني إبراهيم، باب أبي اسحاق في حي بني سيسين، باب الربيع في حي بني وقين([2])، وفي كل باب من هذه الأبواب ما يشبه غرفة المراقبة والتي يبقى فيها الحرس لمنع اقتراب أي شخص من الباب أو محاولة خرقه وأضيف باب آخر في حي بني وقين يدعى باب رباح([3]).

يذكر مولاي بلحميسي نقلا عن العياشي مايلي: " **فدخلنا وارقلا قبل غروب الشمس ونزلنا بباب المدينة المسمى بباب السلطان وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولنا دخول قافلة من أعراب – الأرباع- قدمت بسمن كثير وابل وزرع** ... "([4])

كما كانت لأسوار المدينة أبراج دفاعية تصل إلى واحد وأربعين برجا بارزة حسب ما يذكر دوماس وذلك سنة 1845، بينما لم يظهر إلا 16 برجا في المخطط الذي وضعه الفرنسيون سنة 1895([5])، بنيت هذه الأبراج بالطوب والحجارة وهي ذات أشكال مربعة موزعة على محيط السور الذي يبلغ طوله 2100م، تطل كلها على خندق عرضه 20 م يملأ بالماء في الحالات الدفاعية.

---

[1] Daumas (G), Le Sahara Algérien, paris, 1845, p 72
[2] Op cit, p 130
[3] Ipid, p 130
[4] مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 62
[5] Vullot (P), L’exploration du Sahara, paris, 1895, p 177

وهذه الأسوار الدفاعية والخنادق كانت توجد بكثرة في المدن الصحراوية دفعا لغارات العدو مثلما كانت في نقوصة وتقرت وبسكرة، ولا يزال بعضها يحمل الطابع الدفاعي وبهذا الشكل تتحول هذه المدن إلى قلاع محصنة.

إن فكرة حفر الخنادق حول المدن هي فكرة فارسية الأصل اقترحها الصحابي الجليل سلمان الفارسي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب، ولوارجلان اتصال بالدولة الرستمية والتي حكمها أئمة رستميون ذوو أصل فارسي وحلوا بها بعد سقوطها ويمكن أن تكون من أفكارهم، وهو نفس الشيء ما حدث في بناء مدينة بغداد سنة 147 هـ / 764 م وبني حولها سوران وأمامها خندق عرضه ستة أمتار وبوابتها توصل بجسور بعدها مدخل منكسر([1]).

[1] سامي كمال الدين ، فن العمارة الإسلامية، الاتحاد العربي للطباعة، مصر، 1974، ص 30-38

- الشوارع:

تحدد الشوارع في المدن الصحراوية من الشمال إلى الجنوب لان هذا التوجيه يساعد على استقبال الرياح الشمالية التي تكون محملة بالرطوبة للتخفيف من شدة الحرارة وكذلك لتفادي تعرض هذه الشوارع ومداخل البيوت إلى أشعة الشمس الحارقة، ويرى ابن الربيع أن تقدر طرق وشوارع المدينة بصورة تتناسب مع الاستخدام البشري، ووسائل النقل المتاحة في تلك الفترة حتى تتناسب مع حركة المرور وكثافتها لكي لا تضيق بهذه الحركة أو تلك الكثافة([1])، فكان لكل شارع أهميته وظيفته الخاصة فهي تختلف في مقاساتها وتنقسم إلى:

- الشوارع الرئيسية التي يطلق عليها الفقهاء بالطرق السابلة أو الشوارع العامة.

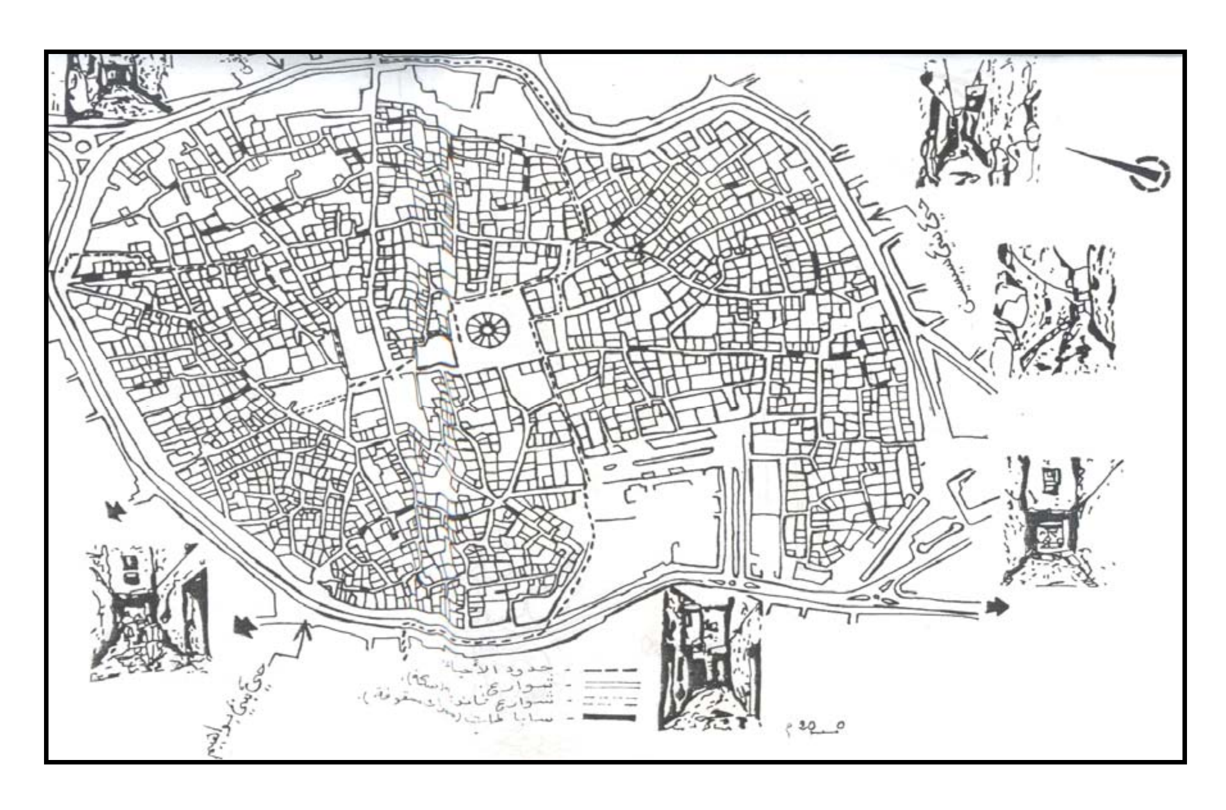
- الشوارع الثانوية أو الطرق الفرعية وتعرف بالسكة النافذة الدروب أو الأزقة غير النافذة، فهي ممرات خاصة تخلو من الحركة والنشاط وتنتهي بساحة تتوزع حولها المنازل وتعرف باسم العائلة التي تقطن فيها ([2]).

إن الشوارع بأنواعها كونت شبكة الطرق الرئيسية بطريقة تأثرت بالتكوينات العامة في المدينة الإسلامية كالمسجد الجامع وغيره وبالأحكام الفقهية التي تحكم نظام الشوارع ونوعيتها.

---

1 عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص 112

2 حملاوي، المرجع السابق، ص 39 ـ 40



شكل رقم (16): شوارع المدينة

(نقلا عن Vuillot, l'exploration du sahara)

- الأحياء:

تتوزع الأحياء في مدينة وارجلان على شكل قبائل منفصلة عن بعضها البعض بواسطة سور ويفسر هذا التقسيم للأحياء الانتماء القبلي لكل مجموعة مثلما عرف في اغلب المدن الإسلامية، ولكل مجموعة من هذه القبائل لها رئيس يدعى شيخ القبيلة أو كما يطلق عليه محليا (آت) مثل آت إبراهيم([1]).

بهذا الصدد يذكر بلحميسي عن أحياء مدينة وارجلان قائلا: " **تعرف المدينة بأسوارها الواسعة المستديرة التي تبنى داخلها رغم الأنقاض أحيائها الثلاثة الجلية التي تتألف منها، وكل حي منها يدعى باسم البطن الذي يسكنه، وهذه البطون هي بنو سيسين، بنو واجين وبنو إبرازايم، وتتألف من كل واحد من هذه الأحياء مدينة داخل المدينة وتفصلها عن الأحياء الأخرى أسوار وأبواب** "([2])

- حي بني إبرازايم:

يقع هذا الحي في الجهة الشمالية الغربية من القصر يضم في رقعته ساحة السوق والمسجد المالكي والإباضي، يوجد به بابين باب عزة وباب عمار، به شارع يسمى الميزاب لا يسكنه إلا النبلاء ولا يحتوي على طائفة إباضية على عكس حي بني وقين، الذي هو من أقل الأحياء مساحة التي يشغلها من الجهة الشمالية الشرقية للمدينة يحتوي على شارع خاص بالإباضيين الذين نزحوا إلى المدينة بعد خراب سدراته.

1 أبو القاسم سعد الله، "رحلة الأغواطي"، مجلة التاريخ، العدد 13، م و د ت، الجزائر، 1982، ص: 69

2 مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 208

- **حي بني سيسين:**

يقع في الجهة الجنوبية من المدينة يضم في رقعته قصبة السلطان يوجد بالحي ثلاثة أبواب وهي باب السلطان، باب احميد، باب أبي إسحاق.

- **حي بني وقين:**

بنو وقين هم احد البطون الثلاثة المكونة لسكان المدينة، وهذا الحي اقلهم مساحة واتساعا ويوجد به شارع خاص بالإباضيين الذين نزحوا إلى وارجلان بعد خراب سدراته. (الشكل رقم 13)

شكل رقم (17): أحياء المدينة.

(نقلا عن TRUMELET**)**

- السوق:

تعد الأسواق من المرافق الأساسية العامة في المدن وتوفير الغذاء مطلب أساسي لنشأة المدن، فهناك مدن تعتمد على إقليمها الذي يمدها بما تحتاج إليه أو عن طريق التبادل التجاري([1])، فالسوق نتاج حضاري تتوارثه الأمم مع تواتر الحضارات، فهو مركز الحياة الاقتصادية كما يمثل عصب المدينة والرابط القوي بين التجارة والإنسان يحتوي السوق على مجموعات كبيرة من المحلات التجارية التي تختلف في أحجامها وأنشطتها، كما نجد عدد من المنشآت التجارية محاطة بالسوق والمتمثلة في الفنادق والخانات والوكالات وغيرها.

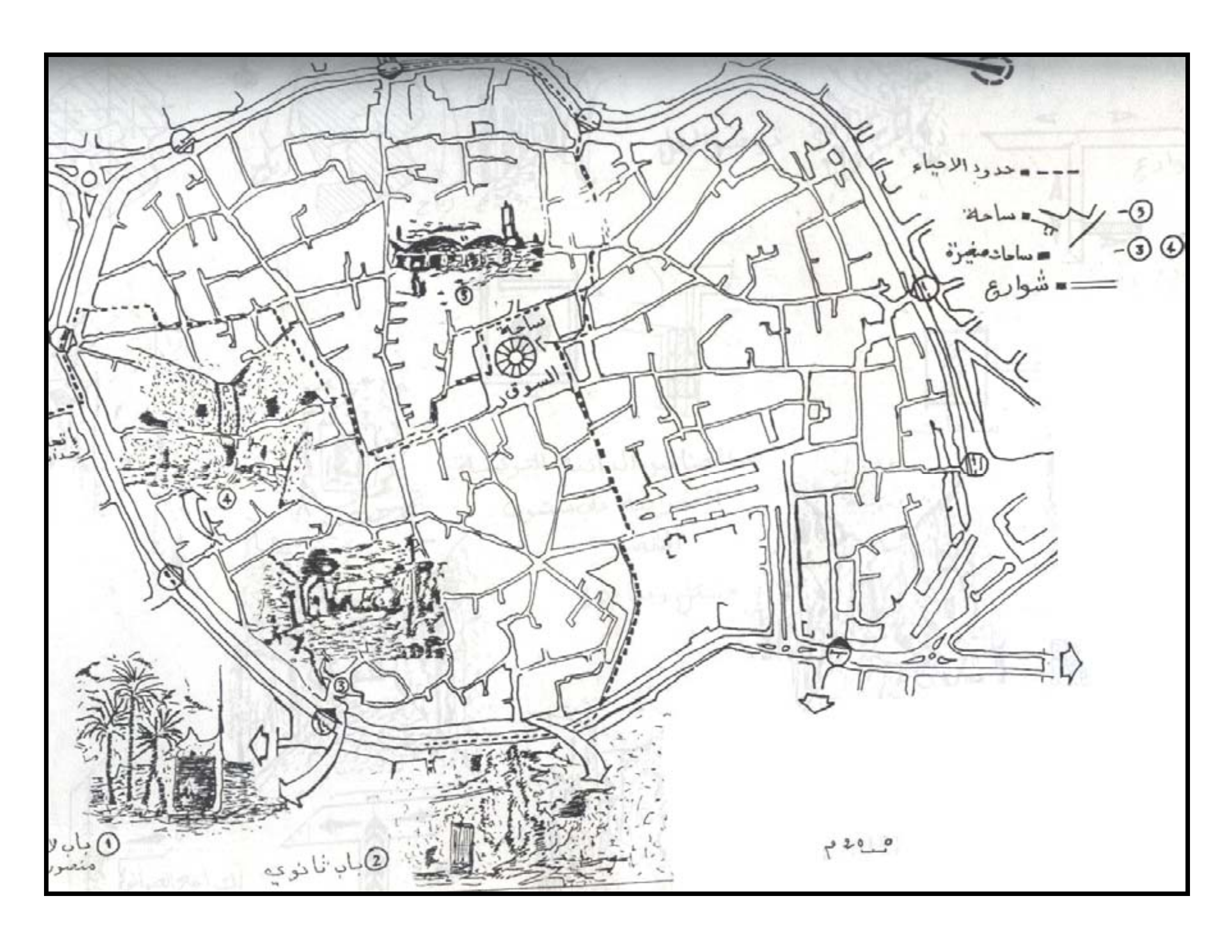
ومن شرط تقدير الأسواق ألا تزيد عن حاجة السكان فتنهار الأسعار وتبور البضائع، وألا تقل عن الحاجة فترتفع أسعارها وفي ذلك إشارة لتحديد الحجم المناسب للأسواق بصورة تناسب حجم السكان([2]).

كان السوق في بدايته يقوم على شكل تجمع شبه مستقر في البوادي والقرى أو عن طريق التجارة كمحطات للراحة ثم تطور ليصبح أماكن تجارية يقتضي فيها الناس شؤونا مختلفة من حياتهم، حيث تقام أمام المساجد الجامعة لأنها الأساس في تخطيط المدينة ومنها تتفرع كل الطرق الكبرى المؤدية للأبواب ([3]) وهذا لا يختلف مع ما هو مجسد في تخطيط مدينة وارجلان حيث نجد تمركز السوق في قلب المدينة .

[1] عثمان عبد الستار، المرجع السابق، ص: 97

[2] خالد مصطفى عزب، المرجع السابق، ص: 78

[3] مؤنس حسين، تاريخ المغرب وحضارته، مج 1، ج1، ط 1، بيروت، 1992، ص 293



شكل رقم (18): تمركز السوق وسط المدينة.

(نقلا عن الطالب كنتاوي**)**

ومن هنا نستنتج أن منطقة وارجلان برزت كمدينة لاعتبارها بوابة تمر من خلالها القوافل التجارية سواء تلك القادمة من السودان نحو المغرب الأقصى، أو قوافل المغرب الأوسط المتجهة نحو السودان، والتي كانت تنطلق من طبنة ثم إلى بسكرة والمارة عبر مدينة وارجلان ومنها إلى الزاب ثم أدرار إلى تغازة وصولا إلى بلاد السودان.

ومن خلال شبكة الطرق المختلفة جعلت من مدينة وارجلان قطبا تجاريا واقتصاديا هاما، ساعد ذلك في تطورها، فكانت كل مدينة جديدة تربط بشبكة من الطرق توصلها إلى المدن الأخرى.

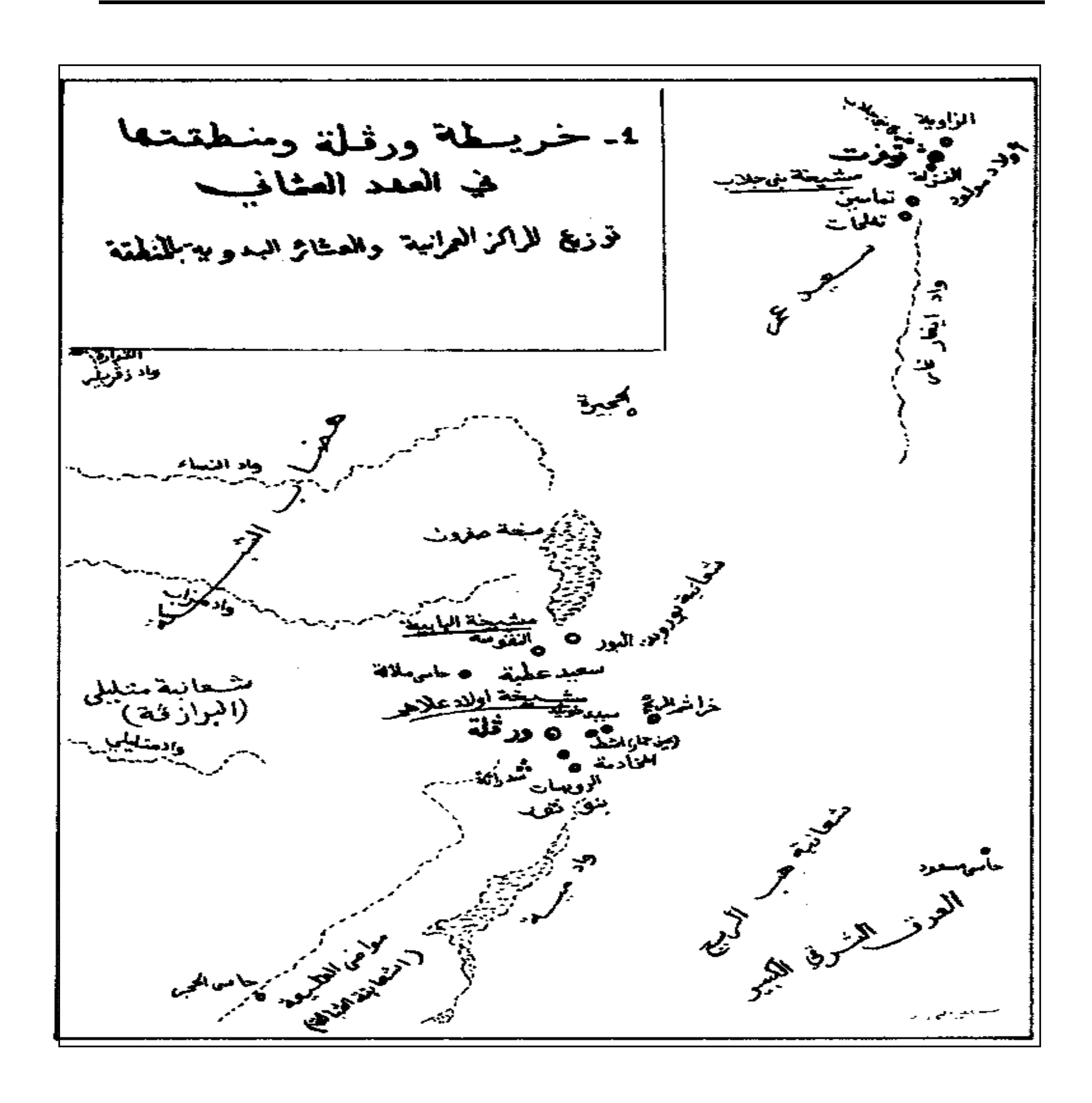
وعلى ضوء ذلك يبرز دور الطرق التجارية جليا في اختيار موقع مدينة وارجلان، خاصة المناطق التي تمتد فيها شبكة المواصلات، هي مناطق مأهولة وتنتشر فيها المدن لاسيما منخفضات الحضنة (تيهرت، سدراته، وارجلان، بني ميزاب)، والذي ارتبط بإقليمها مما مكن المدينة من توفير احتياجاتها وتصدير منتجاتها خاصة وأنها تقع على محاور الطرق التجارية الهامة، ومن أهم المنشآت التجارية في المدينة هو السوق، التي يتجمع فيها السلع المختلفة المحلية والخارجية وهذا ما إلى إنشاء بعض المؤسسات التجارية المتمثلة في الوكالات والفنادق التي كانت قائمة في وسط المدينة، لاسيما انتشار الخانات المبنية في المدن الصحراوية وعلى مستوى الطرق الرئيسية كمحطات لتوقف القوافل وتبادل المنتجات وغيرها، وهذا ما انعكس على منطقة وارجلان ونتج عن ظهورها كمدينة عرف اقتصادها رخاء وثراءا.

وأما عن دور وأهمية مدينة وارجلان في تجارة إفريقيا الشمالية مع السودان فيقول أنها: " ..كانت بجانب الطريق تيهرت- سجلماسة – غانا طريق أخر يقطع الصحراء من الناحية الشرقية في عهد الرستميين، وكانت مراحلها واحة ورقلة في شمال الصحراء، ومدينة تادمكت التجارية في جنوب هذه الصحراء من الشمال الشرقي لمدينة غاو.... كانت مركزا تجاريا وهو- كمنطلق للقوافل المتجهة قديما من إفريقيا الشمالية إلى السودان الغربي- صالح للمقارنة بينه وبين مركز سجلماسة على الطريق التجارية تيهرت- غانا- وحسب الإدريسي المسافة بين المسيلة وورقلة تقدر بمسيرة إثنى عشر يوما بأكملها " ([1])

1 بلحميسي مولاي، المرجع السابق، ص 109.

لقد لعبت مدينة وارجلان دورا هاما في مجال التجارة في العهد الوسيط وظل ذلك دورها الايجابي بارزا حتى في الفترة العثمانية بفضل هذه الطرق التي أدت الى إحياء المدينة التي مازالت وظيفية في تلك الفترة ، حيث نجدها تشكل محورا واحدا ومركزا رئيسيا لتجارة السودان ومحطة أخرة لطريق الحج، ومنطلقا سهلا للتوغل في عمق الصحراء([1])، فمدينة وارجلان بفضل الوضع الطبوغرافي كانت أثناء الفترة العثمانية عبارة عن قصر صحراوي أقيم فوق مرتفع من الأرض يشرف على نخيل الواحة، والمدينة محاطة بسور يرد ويسد هجمات العدو.

1 سعيدوني ناصر الدين، ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977، ص 72.



شكل رقم (19): خريطة ورقلة في العهد العثماني.

نقلا عن سعيدوني ناصر الدين

وهناك من الباحثين الذين اهتموا بدراسة المدن وأكدوا أهمية المسالك والطرق التجارية في نشأة المدن وتطورها مثل ابن الربيع و عثمان عبد الستار وناصر الدين سعيدوني، هذا الأخير يذكر:" **فالطريق الرئيسي الذي أعطى لورقلة أهمية خاصة، والذي يعرف بطريق الواحات والقصور، كان ينطلق من تافيلالت نحو غدامس، ويتفرع من ورقلة وتوغرت الى كل من تماسين والقليعة والأغواط والزيبان... وهناك طريق آخر يقل أهمية عن سابقه وهو طريق الذزاب، الذي يمر بورقلة وتوغرت ويربط موانئ بلاد المغرب العربي بالمدن الرئيسية لممالك السودان** "([1])، وبفضل هذه الطرق التي كانت تمر عبر منطقة ورقلة جعلت منها مستودعا وسوقا لمنتوجات الصحراء والتل والسودان.

1 نفسه، ص 83



شكل رقم (20): خريطة طرق المواصلات في العهد العثماني.

نقلا عن سعيدوني ناصر الدين


الخاتمة

خاتمة:

لقد أثر المناخ الصحراوي تأثيرا مباشرا وفعالا في تخطيط التكوينات المعمارية للمدينة الإسلامية، كما كان له الأثر الواضح في تخطيط شوارعها وتحديد اتجاهاتها وتشابهت هذه التأثيرات في معظم المدن الإسلامية سيما أن أغلبها يقع تقريبا في المنطقة الحارة فتلاصقت المباني وتدرجت مقاييس الشوارع وأصبح الفناء عنصرا رئيسا في تخطيط التكوينات المعمارية.

تعد التجارة من أسباب التي أدت إلى نشأة المدن وتطورها، فقد لعبت دورا أساسيا فيها وكانت وراء ونمو المدن وتطور العمران الإسلامي، وتعتبر بلاد المغرب الأوسط وخاصة المدن الصحراوية ملتقى الطرق التجارية التي ربطت بين المغرب الإسلامي وجنوب إفريقيا خاصة بلاد السودان الغربي، فكانت مدينة وارجلان ملتقى هذه القوافل التجارية وهذا ما أدى إلى تطورها وازدهارها وبذلك انتقلت المعالم الحضارية إلى بلاد السودان الغربي، ومن هنا برزت أهمية اختيار موقع المدينة على الطرق التجارية الرئيسية التي تمكنها من توفير احتياجاتها وتصدير إنتاجها ولا سيما أن المدينة لا يمكنها أن تعيش على الوظائف المحلية فقط، وكان الفضل كذلك لأهل العلم والعلماء ومختلف الصنائع التي اعتمدت أساسا على الازدهار الاقتصادي الذي يكاد ينحصر في تلك الفترة على النشاط التجاري، هذه الفئات ساعدت على إنشاء بعض المدن ثم بتعاقب الأزمنة ساعدت على نموها تطورها.

ارتبطت التجارة بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان بنشر الإسلام، وتوطدت العلاقات التجارية بينهما بفضل فئة التجار التي لعبت دورا أساسيا في هذه العلاقات، وكان المغرب الإسلامي قد ساهم في إحياء وازدهار بلاد السودان الواقعة ما وراء الصحراء الكبرى عمرانيا وتجاريا، كما ساهمت بلاد السودان أيضا بفضل تصديرها للذهب والرقيق في تطور مدن المغرب الإسلامي.

لقد أحدث النشاط التجاري حركة اتصال بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان خاصة في القرنين الثالث والرابع للهجرة، وكانت نتيجة المبادلات التجارية بين المنطقتين أن تغيرت المجتمع المغربي، وأصبح يضم عناصر جديدة تتمثل في عنصر السود الذي ساهم بدوره في التطور العمراني والاقتصادي للمغرب الإسلامي، وبمجرد أن بدأت بلاد المغرب تفقد حيوية المسالك التجارية بينها وبين بلاد السودان، تراجع نشاط المدن في المغرب الإسلامي وضعف عمرانها، وضعف دورها كحلقة وصل في المبادلات التجارية بين المشرق الإسلامي والأندلس من جهة وبلاد السودان من جهة أخرى.

لقد انعكس ازدهار التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان على المغرب الإسلامي، وتعد الطرق التجارية التي كانت مسالك القوافل التجارية إلى بلاد السودان أدى ذلك إلى إنشاء مراكز تجارية ومن ثم انتشرت الأسواق وهذا ما ساعد على إنشاء المدن وتطورها ، فمن المعروف أن المغرب الإسلامي كان يتميز بطابعه العمران البدوي، وكانت هذه السمة الأساسية بلاد المغرب منذ العصور القديمة، وفي العهد الإسلامي أيضا بالرغم ما عرفته من ازدهار عمراني.

إن النسيج العمراني في المدينة الإسلامية كان له شخصية مميزة لم يندمج ويذوب في شخصية المدن الأخرى، وعلى الرغم من أن المدن الإسلامية استفادت من المدن السابقة، هذا لا يعني أنها لا تتميز بطابع وشخصية يجعلها منفردة عن غيرها، فقد كان للإسلام اثر كبير في تركيب بنيها وتشكيل وحدتها السكنية وتنظيم حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ومن هنا يمكن القول أن مدينة وارجلان أنشئت وفقا لشروط ابن الربيع التي تتحكم في تخطيط المدن الإسلامية .

ظل النشاط الحيوي لمدينة وارجلان ودورها الهام في مجـال التجـارة يبرز من العهد الوسيط حتى في الفترة العثمانية، بفضل موقعهـا الاسـتراتيجي وتوسطها لشبكة الطرق التجارية، التي كانت تنطلق من المغرب الأوسط إلـى بلاد السودان، هذا ما أدى إلى إحياء المدينة التي مازالت وظيفية فـي الفتـرة العثمانية، حيث نجدها تشكل محورا واحدا ومركزا رئيسـيا لتجـارة السـودان ومحطة أخرى لطريق الحج، ومنطلقا سهلا للتوغل في عمق الصحراء.

المصادر والمراجع

المـ ـ ـصادر:

- القـ ـرآن الكريم.
- الإدريسي (أبي عبد الله الشريف)، **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية** مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تصحيح ونشر هنري بيراس، الجزائر،1957.
- البكري (أبو عبيد الله)، **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب**، مطبعة دو سالان، باريس، 1965. الجزائر 1857.
- ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق علي المنتصر الكيتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ابن حوقل (أبي القاسم)، **كتاب صورة الأرض** ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، المجلد السابع، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1981.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج3، القاهرة، 1967

- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، ج1، دار الثقافة بيروت، 1968.
- ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، د م ج، الجزائر، 1984.
- ابن عذارى المراكشي (أبو عبد الله)، **البيان المغرب في أخبار المغرب**، ج1، ط2، مكتبة صادر، بيروت، 1947- 1950.
- ابن مرزوق محمد التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- أبو بكر عبد الله المالكي، **رياض النفوس**، ج1، القاهرة، 1951.
- أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق إسماعيل العربي، م و ك، الجزائر، 1968.
- أبو عبد الله محمد بن محمد الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، بيروت 1975.
- السلاوي (احمد بن خالد الناصري)، **الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى**، ج5، طبعة دار البيضاء، 1954.
- السعدي عبد الرحمن، **تاريخ السودان**، طبعة هوداس، باريس، 1964.

- القزويني (زكريا بن محمد بن محمد)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر بيروت، 1380هـ.
- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي)، **وصف إفريقيا**، ط.2، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، 1983.
- الوزان (حسن)، **وصف إفريقيا**، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1983.
- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج 7، طهران، 1965.

الـ ـ ـمخطوطات:

- السلاطي (محمد بن علي)، **معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار**، مخطوط رقم 1192، الجزائر، د.ت.

المراجع:

- باشا (نجاة)، **التجارة في المغرب الإسلامي من القرن 4 إلى القرن 8 هـ**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، منشورات الجامعة التونسية، 1976.
- حبيب (محمد)، **زوايا العلم والقرآن بالجزائر**، دار الفكر، الجزائر، د.ت.
- حسن (إبراهيم حسين)، **انتشار الإسلام في القارة الإفريقية**، القاهرة، 1963.
- الحريري (محمد عيسى)، **مقدمات البناء السياسي للمغرب الإسلامي- الدولة الرستمية**، ط 2، دار القلم، الكويت، 1983.
- الحفناوي (أبو القاسم محمد)، **تعريف الخلف برجال السلف**، ج1، الجزائر، 1906
- الجثماني (الحبيب)، **المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرنين (3-4هـ/9-10م)**، الدار التونسية للنشر، ش و ن ت، الجزائر، 1978.
- جودت (عبد الكريم يوسف)، **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، م و ك، الجزائر، 1982.
- جودت عبد الكريم يوسف، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية خلال القرنين 3-4 هـ**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.
- الجيلالي عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**، ج1، ط7، د م ج، الجزائر، 1994.
- جرجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج5، تعليق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1972.

- العربي (إسماعيل)، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، م و ك، الجزائر، 1987.
- العربي (الزبير محمد)، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1798- 1830**، ط 2، م و ك، الجزائر، 1984.
- عز الدين احمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6 هـ**، بيروت، 1983.
- زبادية (عبد القادر)، **الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية وجنوب الصحراء**، م و ك، الجزائر،1989 .
- زبادية عبد القادر، **مملكة سنغاي في عهد الإسقيين**، م و ك، الجزائر، 1971
- سامح (كمال الدين) **فن العمارة الإسلامية**، الاتحاد العربي للطباعة، مصر، 1974.
- سالم (عبد العزيز)، **تاريخ المغرب الكبير**، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
- عثمان (عبد الستار)، **المدينة الإسلامية**، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999.
- سعد زغلول (عبد الحميد)، **تاريخ المغرب العربي**، ج1، بيروت، 1998.
- قداح (نعيم)، **حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية**، ط2، الجزائر1975.

- محمود (حسن أحمد)، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقية**، دار النهضة العربية، القاهرة.
- المدني (أحمد توفيق)، **كتاب الجزائر**، م و ك، الجزائر، 1984.
- مؤنس (حسين)، **تاريخ المغرب وحضارته**، مج 1، ج1، ط 1، بيروت، 1992.
- ناصف (سعيد)، **المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر**، مكتبة زهراء الشرق، جامعة عين شمس، القاهرة، د.ت.
- النحوي (خليل)، **بلاد شنقيط**، المنظمة العربية للتربية والثقافة، تونس، 1987.
- نقولا (زيادة)، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962

الـــرســائل الجامعية:

- بويحياوي (عز الدين)، **تطور العمران الإسلامي من خلال عواصم المغرب الأوسط**، أطروحة دكتوراه دولة، الجزائر، 2004.

المــقالات:

- أبو القاسم سعد الله، "**رحلة الأغواطي**"، مجلة التاريخ، العدد 13، م و د ت، الجزائر، 1982.
- خالد محمد مصطفى عزب، "**تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**"، كتاب الأمة، العدد 58، قطر، 1418هـ.
- زبادية (عبد القادر)، "**السودان الغربي وممالكه الإسلامية الكبرى**"، مجلة التاريخ، العدد 9، م و د ت، الجزائر، 1988.
- سعيدوني ناصر الدين، **ورقلة ومنطقتها في العهد العثماني**، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977
- الشيخ الأمين (عوض الله)، "**تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر**، تجارة القوافل ودورها الحضاري

حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، م ب د ع، بغداد، 1984.

- العراقي (سيد أحمد)، " **تجارة القوافل بين شمال وغرب إفريقيا وأثرها الحضاري**"، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة، م ب د ع، بغداد، 1984.
- عقاب (محمد الطيب)، " **التراث المعماري في مدينة سدراتة التاريخية**"، حوليات المتحف الوطني للآثار، العدد 11، الجزائر، 2002.
- زبادية عبد القادر، "**عروس مدائن الجنوب الجزائري**"، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977، ص 141.
- مولاي بلحميسي،" **ورقلة من خلال النصوص الأجنبية**"، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم 41، 1977
- مكي جلول، **تطور ناحية ورقلة مابين 1962- 1975**، مجلة الأصالة ، عدد خاص، رقم 41، 1977

الموسوعات، المعاجم و القواميس:

- **الشنتناوي (أحمد)، دائرة المعارف الإسلامية،** السودان، **ط 1، ج 19، دار المعرفة، بيروت، 1998.**

باللغة الفرنسية

Ouvrages:

- André (Z), **Le Commerce de détail dans un ksar du Touat**, supplément au bulletin de liaison saharienne, N° 41, Mars 1961.
- Carette (E), **De Commerce de l'Algérie, l'Afrique centrale et les états barbaresques**, Paris, 1844.
- Chapelle (j), **Le Peuple tchadien ses racines et sa vie quotidienne et ses combats**, Ed l'harmattan, Paris1980.
- Daumas (e), **Le Grand désert ou itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des negeres**, Paris, 1849.
- Denys (P), **Quelques repères pour l'histoire de Ouargla de 1972**, 1889, Paris,
- Echallier (J, C) **village désertés et structures agraires ancienne du Touat**, Gourara algérien, Paris, 1972.
- Hamlaoui (A), **Remarque sur l'origine et rôle du sabat dans l'architecture de la région de l'Oued Rig**, R.A, université d'Alger, n 3, 1995.

- Kaddache Mahfoud**, L'Algérie Médiévale**, S N E D, Alger, 1982.
- Lethielleux (J), **Ouargla, cite saharienne**, librairie orun Taliste Paul Genthier, Paris, 1983.
- Lewcki (T), **Quelques extraits inédits Relatifs aux Voyages des Commerçants et des Missionnaires ibadites Nord Africains au pays du Soudan occidental et central au moyen age**, Folia Orientalia.
- Coudreau, **Le Pays de Ouargla et les peuples de l'Afrique**, paris, 1881.
- Madeleine(R,B) **Le Pays de Ouragla, sahara algerien**, département de geographie de l'universite de paris, serbonne, Paris, 1975.
- Marçais (G), **La Bérbérie aux x siècle d'après El Ya'qubi**, recueil d'articles art musulman et histoire maghrébine, Alger, 1956
- Maurice Lombard, **L'Islam dans sa premiere grandeur 8-11siecle**, Paris,1971.
- Mauroy, (M), **Du Commerce de peuples de l'Afrique septentrional**, Paris, 1845

- Rivillois (M), (B), **Le pays d'Ouargla, Sahara Algérien**, Paris, 1975.

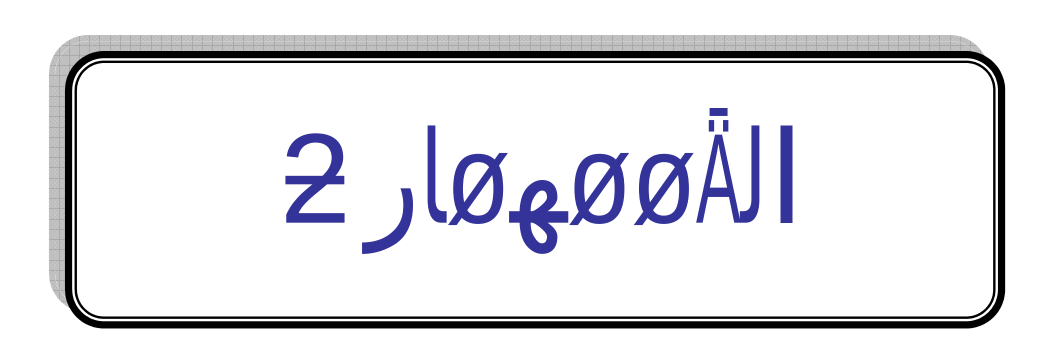
- Thomas (S), **Voyage dans la régence d'Alger au 18 siècles**, traduit de l'anglais par e, mac carthy 1830, l, Alger, 2007.

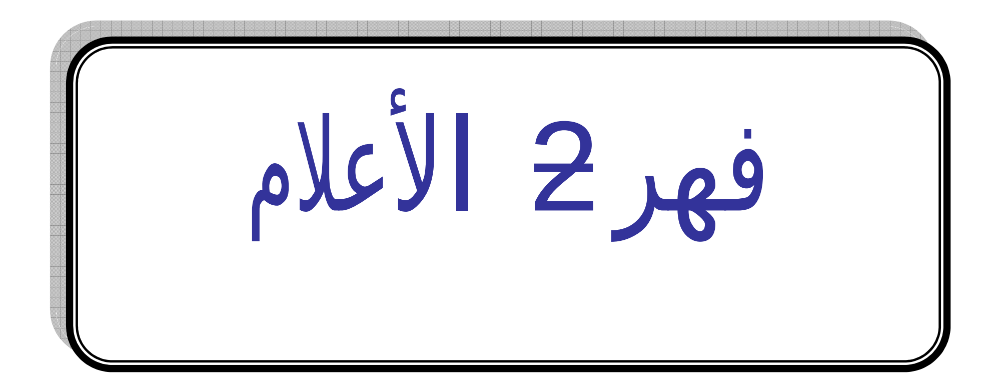
- Vanacker (C), **Géographie économique de l'Afrique du nord selon les auteurs arabes du 9 siecles au 12 siecles**, Annales, mai, juin1973.

- Vullot (P), **l'exploration du sahara**, Paris, 1895.

LES REVUES :

- Balont (L), **Aperçu sur l'evolution du paysage quaternaire et de peuplement de la region de ourgla**, Libyca, tome 20, crape, 1972.
- Marmierb (F),**Notes pour servir à l'historique de Ouargla**, R-A, N 64.


الÃØØهØØلر 2



فهرس الأعلام

فهرس الأعلام


فهرس الأماكن

فهرس الأماكن

- ţ -


فهرس القبائل
والشعوب

فهرس القبائل والشعوب



فهرس الخرائط والأشكال

الخرائط والأشكال:

رقم الصفحة


فهرس الموضوعات

فهرس ا وضوعات

الفصل الثالث: تطور ا دن ا غرب الأوسط العهد الوسيط " 70- 90"

الفصل الرابع: مدينة وارجلان – دراسة وذجية " 91- 121"

الفــ ــ ــهارس:"139 - 159 "